محمد عبد المنعم عامر

الإسكندرية .. المكتبة والأكاديمية في العالم القديم

المكتبة الاكاديمية

٢٠٠٠

الإسكندرية ..
المكتبة والأكاديمية

فى العالم القديم

حقوق النشر

المكتبة الأكاديمية

١٢١ شارع التحرير – الدقى – القاهرة

تليفون : ٣٤٨٥٢٨٢ / ٣٤٩١٨٩٠

فاكس : ٣٤٩١٨٩٠ – ٢٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الإسكندرية القديمة

أسس الإسكندر الأكبر مدينة الإسكندرية عام ٣٣١ قبل الميلاد، وكان يهدف باختياره هذا المكان عاصمة لمصر تيسير ربطها ببلاد اليونان وممالك البحر المتوسط. وقام المهندس دينوقراطيس Dinocrates بتنفيذ مشروعه ببناء مدينته العظيمة على أطلال مدينة راقودة - كما نقل إليها الكثير من سكان مدينة كانوب Canoplis المعروفة الآن بـ«أبوقير».

وقد ذاع صيت مدينة الإسكندرية فى عهد البطالسة وكانت تعد ثانية مدن العالم.

على أن هذا الاختيار جعل هذه المدينة العظيمة طيلة عهد البطالسة منعزلة عن بقية القطر المصرى إلى درجة كبيرة، وكانت علاقاتها ببلاد البحر الأبيض المتوسط أقرب إليها من أقاليم مصر نفسها.

على أنه يمكن القول أن الإسكندرية بلغت ذروة عظمتها فى منتصف القرن الأول قبل الميلاد، حينما بدأ الرومان يتدخلون فى الشئون المصرية وفى الخلافات بين كليوبترا وزوجها بطليموس الرابع عشر، غير أن مقدم يوليوس قيصر إليها واشتباكه فى الحرب الأهلية إلى جانب كليوبترا ضد زوجها كان سبباً فى حرق الأسطول المصرى وتدمير المكتبة كما سيجئ فيما بعد..

وقد فقدت الإسكندرية كثيراً من مركزها السياسى فى العهد الرومانى، ولكن الأباطرة الرومان لم يتجاهلوا مكانتها العالمية؛ فقد أعلن الإمبراطور فازبازيان (Vespasian) نفسه إمبراطوراً للإسكندرية عام ٦٩م كما زارها ابنه الإمبراطور دوميديانيس (Domitienies) ٨١ - ٩٦ ميلادية، كما زارها من الأباطرة مارك أورليوس وكومودوس وسفيروس وادريان حتى عام ٢٧٥ ميلادية.

ولما انتشرت المسيحية بمصر واشتد الصراع بينها وبين الوثنية، أصاب مدينة الإسكندرية ضرر كبير وتعرضت للهدم والتخريب، فهدم ثيوفبليس (Theoplubes) معبد السرابيوم الشهير عام ٣٩١م. ولما استولى الفرس على الإسكندرية عام (٦١٩ ميلادية) دمروا كثيراً من الأديرة والكنائس.

وفى عام ٦٤١ ميلادية استقبلت الإسكندرية عصر زاهراً جديداً، وذلك عندما استولى المسلمون بقيادة عمرو بن العاص عليها، بعد حصار دام أربعة عشر شهراً.

المكتبة والأكاديمية :

لم تكن الإسكندرية فى عهد البطالسة مركزاً دولياً للتجارة فحسب، ولكنها بمكتبتها الشهيرة وأكاديميتها حافظت على ما أنتجه العقل اليونانى من آداب وعلوم وفنون، كما ذكر ماتيه عام ١٨٢٠ فى كتابه عن مدرسة الإسكندرية. ومع أن بطليموس الأول كان حربى النشأة، إلا أنه أراد أن ينقل إلى مصر الثقافة (الهيلينية) فحاط نفسه بالعلماء والأدباء، كما فعل الإسكندر من قبل، وراسل الفلاسفة بجميع بلاد اليونان واشترك معهم فى محاوراتهم ومناقشاتهم، وكان ببلاطه نخبة من العلماء والأدباء منهم فيليطاس (Philtas) الذى عهد إليه بتربية ابنه بطليموس فيلادلف، ثم الرياضى إقليدس الذى ألف كتباً كثيرة للمكتبة ثم المهندس سرسطراطس (Sostratos) الذى شيد فنار الإسكندرية الشهير.

اختلف الأقدمون حول المؤسس الحقيقى للمكتبة والأكاديمية، فمنهم من نسب ذلك إلى بطليموس الأول ـ سوتر (Soter)، ومنهم من عزاها إلى ابنه بطليموس فيلادلف الذى شاركه الحكم فى المدة من ٢٨٦ إلى ٢٨٤ قبل الميلاد، على أن الرأى الأرجح والذى تحدث عنه فيتروفيوس بوليو Vituvius Pollio الذى عاش من ٨٨ إلى ٢٦ قبل الميلاد ـ والذى رافق الإسكندر الأكبر فى حروبه ـ هو أن بطليموس الأول هو الذى بدأ بفكرة المكتبة بين عامى ٣٠٠ ـ ٢٩٠ ق.م وسار خلفه على سياسته، وقد جمع لها العلماء. كما أن الراجح أيضاً أن بطليموس الأول (سوتر) هو أيضاً مؤسس الأكاديمية، فقد كان متأثراً بالأكاديميات اليونانية؛ فأكاديمية الإسكندرية بمبناها وقاعاتها كانت تشابه أكاديميات أثينا. وكما استعان سوتر بخبرة ديمتريوس فى تأسيسه للمكتبة، فقد استعان به أيضاً فى تأسيس الأكاديمية فيما بين عام (٢٩٠ ـ ٢٨٤ ق.م).

لقد كانت الأكادمية تضم أكثر من مائة عالم، عهد إليهم بالترجمة وبالحوار فى الأمور اللغوية والفقهية، وقد نشأت عن هذه المساجلات والمحاورات المدارس المختلفة فى الفقه والنحو والنقد العلمى، وتحولت الأكاديمية بمرور الأيام إلى مكان للدراسة والتعليم وإلقاء المحاضرات فى الرياضيات والطب والتاريخ والنحو وغيرهم. وكان يختار من بين أعضاء الأكاديمية من يقومون بتربية الأمراء.. كما كان له الفضل فى المحافظة على التراث اليونانى.

لقد منيت مكتبة الإسكندرية بخسارة فادحة عندما أحرقت، عندما حاصر قيصر داخل المدينة؛ لكنها أخذت تسترد بعض مكانتها خلال الحكم الرومانى فى مصر إلى أن أخذت تنحل ويتسرب إليها الخراب، نتيجة الإهمال المتوالى حتى قضى عليها البيزنطيون والأقباط عند دخول العرب مصر فى زمن حكم عمرو بن العاص سنة ٦٤٠ ميلادية.

من الذى أحرق مكتبة الإسكندرية ؟

فى عام ٤٧ قبل الميلاد ثارت الإسكندرية على يوليوس قيصر انتصاراً لبطليموس الثالث عشر وحاصره الأهالى فى قصر الملوك فأضرم قيصر فيه النار لينجو، وقيل فى بعض المصادر الأخرى أضرمها الثوار ليهلكوه، فامتد لهيبها وتطاير شررها، والتهمت النيران المكتبة التى كانت تشغل جزءاً كبيراً من القصر المحاصر، ولكن أنطونيوس الذى خلف قيصر فى الحكم وأحب كليوبترا، أهداها مكتبة برجامون الشهيرة ـ عام ٤٠ قبل الميلاد فضمت إلى مكتبة الإسكندرية مما عوضها كثيراً مما فقدته فى هذا الحريق؛ لكن انتشار المسيحية بعد ذلك فى مصر واصطباغ الحياة العلمية بالصبغة المسيحية قضى على ماكانت تضمه هذه المكتبة من أعمال الوثنيين الرومانيين.

وقد أينعت المكتبة بكتبها الدينية المسيحية واليهودية التى أقرها المسيحيون، وكذلك الكتب اللغوية.. وكان أكثر كتبها المتعلق بالخلاف بين البيزنطيين والأقباط. حتى جاء الفتح الإسلامى فانجلى البيزنطيون عن الإسكندرية مصطحبين معهم من كتب المكتبة ماكان عزيزاً عليهم.

فلما وضع العرب أيديهم على المكتبة لم يجدوا فيها إلا كتب المهاترات الدينية وأشياء أخرى تافهة ولا قيمة لها؛ ولما كانت هذه الكتب مكتوبة باللغة اليونانية، وكانت مبغوضة من الأقباط لما عانوه من تعنت وظلم البيزنطيين، فإن المقوقس وأصحابه لم يروا بأساً من

إتلاف باقى كتب المكتبة والموافقة على إحراقها ؛ وذلك بتوزيعها على حمامات الإسكندرية وكان أصحابها من الأقباط حتى إذا كان لديهم رغبة فى الإبقاء على هذه الكتب أو بعضها أبقوا عليها ، ولكن هؤلاء القبط كانوا مشوقين للقضاء عليها ليشفوا بذلك غليلهم من البيزنطيين فأحرقوها جميعها . .

أما القول بأن عمرو بن العاص هو الذى أحرق المكتبة بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب ، فأمر مدسوس عليهما إذ لم يقل به إلا القس أبوالفرج المالطى بعد ذلك بمئات السنين فحاشى أن تقوم بهذا العمل أمة لها من تعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة من تكريم العلم وآله . أمة نهجها فى «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» .

هذا هو تاريخ مكتبة الإسكندرية وأكاديميتها ، نعتز به ونتطلع إلى إحياء هذه الأمجاد الثقافية بإنشاء المكتبة الجديدة لتكون الإسكندرية منارة للحضارة العربية الإسلامية ، بعد أن كانت منارة للحضارات القديمة .

لقد اجتهدنا ـ رغم قلة المصادر التاريخية ، بل وتضارب الروايات حول المكتبة والأكاديمية ـ فى إبراز الحقائق التاريخية قدر الإمكان بعد الدراسات المطولة عن نشأة المكتبة وأكاديميتها ، بل وحول ما أثير من حريق المكتبة ، كما ذكرنا فى هذه المقدمة ، وسنرى تفاصيل تاريخ هذا الصرح الحضارى الكبير فى فصول هذا الكتاب ،

والله الموفق ،

المؤلف

الفصل الأول :

الإســـــكندريـــة

- موقع المدينة وتخطيطها فى العالم القديم
- قبر الإسكندر ـ وقصص مختلفة حول مكانه

مدينة الإسكندرية

وصل الإسكندر الأكبر إلى موقع مدينة الإسكندرية بعد الاحتفال بتتويجه فى منف، حيث انحدر بأسطوله من منف إلى فرع النيل الكانوبى الذى كان يصب فى بحيرة مريوط. وقد اختار الإسكندر بنفسه موقع مدينة الإسكندرية فى الموقع الذى كانت تحتله قرية راوقوه (راكريتس) الشهيرة بصيد الأسماك.

ويقول المؤرخ سترابون إن خيال الإسكندر كان ميالاً للتأثر بكل المؤثرات التى جاءت فى أقوال الشاعر الإغريقى هوميروس، واتجه تفكيره إلى اختيار موقع مدينته التى تحل محل مدينة صور وميناءها العظيم فى جزيرة فاروس، التى ورد زكرها فى أشعار هوميروس. ولكنه لما اكتشف أن الجزيرة صغيرة وليست كافية لإقامة المدينة التى يحلم بها، استشار الآلهة فى صلاحية الموقع، وكانت إجابتهم مرضية ومشجعة على أن يضم إلى الجزيرة جزءاً من الشاطىء، المواجه لها والمحصور بين شاطئ البحر وشاطئ بحيرة مريوتيس على أن يربط الجزيرة بالشاطئ. فوضع بنفسه تخطيط المدينة نظراً لإلمامه بالفنون الهندسية، التى درسها على أيدى أساتذته الإغريق، وكلف المهندس ديتوكرايتس الذى أحضره من رودس للإشراف على تنفيذها.

واشتمل التخطيط على ربط جزيرة فاروس بالشاطئ برصيف عرضه ١٤٠٠ متر (هيباستاديون)، وبذلك اشتملت المدينة على ثلاثة موانئ متجاورة. الميناء الغربى وهو الميناء الحربى (اونوستوس)، والميناء الشرقى (كيوبوتوس) وهو الميناء التجارى والسياحى وأطلق عليه اسم العود السعيد. والميناء الثالث على شاطئ بحيرة مريوط (مريوتيس)، التى تصل الإسكندرية بمنف بواسطة فرع النيل الكانوبى.

وقد وضع تصميم مدينة الإسكندرية على طريقة تصميم المدن الهيلينية ذات التخطيط المتعامد، يحيط بها سور دفاعى طوله عشرة أميال. ويخترق المدينة شارعان رئيسيان ينتهى طرف كل منهما بباب من أبواب المدينة الأربعة، كما انقسمت المدينة إلى مجموعة من الأحياء يتوسطها الحى الإمبراطورى (البروشيون). وقد وصفه المؤرخ بيلوخ فى عام ٢٠٠ ق.م، بأن الحى يتوسطه طريق الاستعراضات أو طريق الأعمدة الذى يمتد من شارع النبى دانيال الحالى إلى الشاطئ حيث يقع معبد إيزيس وتمثالها الرخامى الكبير، ويقع إلى جانبه الأيمن قبر الإسكندر.. فى بعض الروايات.

كما أقيمت بالإسكندرية منارتها المشهورة التى أطلق عليها عند إنشائها منارة الإسكندر، وقد أقامها سوستراتوس، ويبلغ ارتفاعها ٤٠٠ قدم، وكان اسمها المصرى القديم المنازة هو الذى أطلق على جميع منارات موانئ العالم فيما بعد، كما أخذ المسيحيون عنها شكل أبراج الكنائس المسيحية الأولى، وأخذ العرب منها تصميم أول منارة فى الإسلام التى شيدت بجامع عمرو بن العاص فى الفسطاط، ونقلت عنها منارة جامع قيروان التى تحمل الطابع والتصميم نفسه، وكانت فكرة عمل المئذنة نقلاً عن منارة الإسكندرية أن أطلق على المآذن فى العصور الإسلامية الأولى اسم المنارات. كما ذكر المؤرخ بيلوخ أن الإسكندرية فى عام ٢٠٠ق.م بعد أن تم تشييدها، كان عدد سكانها مليون ساكن، وأنها كانت تعتبر ثانى مدينة فى العالم بعد روما، كما كانت تتكلم بعدة لغات، فكانت اللغتان المصرية والإغريقية هما اللغتان السائدتان، وتليهما مجموعة من اللغات العبرية والآرامية والهندية، وكان كل منها ينحصر فى حى مستقل من الأحياء الشعبية.

وأقيم على بحيرة مريوط القصر الامبراطورى العائم، وكان إحدى عجائب الإسكندرية وقد بنى على عوامات.

كما ذكر بلوتارك أن الإسكندرية كانت أول مدينة عرفت الفنادق على البحر الأبيض، وكان يطلق عليها اسم قصور الضيافة، كما كانت المدينة مزودة بقنوات للمياه تحت الأرض تنقل إليها المياه من قناة رئيسية تأخذ مياهها من النيل وتحفظ فى خزانات تحت البيوت ترفع منها المياه بالرافعات والمضخات.

كما اشتهرت بحدائقها التى امتدت حتى كانوبيس (أبوقير)، التى تحوى ملاعب الإسكندرية وملاهيها، وأول اسم أطلق على الإسكندرية بعد إنشائها اسم نو الفرعونى؛ أى

المدينة الكبيرة، ثم أطلق عليها اسم «عروس البحر الأبيض» عندما أصبحت عاصمة البلاد وهو الاسم الذى لازمها طوال تاريخها حتى اليوم. ومن المنشآت الرئيسية التى اشتمل عليها تخطيط مدينة الإسكندرية: جامعة الإسكندرية المشهورة، وأكاديمية العلوم، ومعهد الفنون، والمكتبة، ومدرج الألعاب، ومعبد الإله بلوتو (الذى يمثل أوزوريس عند الإغريق) وقد نقل تمثاله من سينوبى (الواقعة على البحر الأسود). وتذكر برديات زنون المصرى أن ذلك المعبد هو سيرابيوم الإسكندرية المقدسة التى دفن فيها.

وقد ذكر سترابون المؤرخ السكندرى «أن نجاح إنشاء الإسكندرية أعظم مدن العالم القديم وأهمها موقعاً من حيث التجارة البحرية والعظمة الفنية يرجع الفضل فيها أولاً وأخيراً إلى ذكاء هذا الرجل الفذ فى آرائه وتصميماته».

غادر الإسكندر مدينته بعد أن وضع حجر أساسها، ولم يتحقق حلمه برؤيتها بعد أن خرجت إلى حيز الوجود، ولكنها خلدت اسمه واحتضنت جثمانه، واحتفظت بسر مكان مقبرته.

بعد أن أتم الإسكندر الأكبر وضع حجر الأساس لمدينة الإسكندرية، أمضى الشهر الأخير من إقامته فى مصر فى مدينة منف، وكانت أولى المهام التى قام بها تنظيم أحوال البلاد وتنظيم الإدارة الحكومية ومنح مصر حكماً ذاتياً ثابت الأركان، ويدير حكم البلاد حاكمان أحدهما مصرى بتيزى (عطية إيزيس) وآخر فارسى من أصل مصرى (دولواسبيس) - كما ذكر عالم الآثار المصرى الكبير الأستاذ سليم حسن.

وبعد أن وطد الحكم فى مصر زحف الإسكندر بجيوشه إلى آسيا للقضاء على ملك الفرس العظيم عام ٣٣١ق.م - ومن هذا التاريخ أخذت فتوحاته تترى وانتصاراته تتوالى، فاستولى على إمبراطورية الفرس وبلاد الهند، وظل النصر حليفه إلى أن وافه الموت فى بابل ولم تتعد سنه ٣٢ سنة وثمانية أشهر، مات عند غروب شمس يوم ٤ من شهر برمودة المصرى (٢٨ أغسطس) عام ٣٢٣ق.م.

لم ينقل جثمان الإسكندر الأكبر إلى مصر بعد وفاته فى بابل مباشرة، بل تأخر سنتين حيث قرر قواده برئاسة بطليموس الأول أن يعدوا له موكباً فخماً يتفق مع عظمته وبطولاته.

وقد استغرق صنع التابوت الحجرى وعربة الموكب التى تحمله مايقرب من السنتين، اشترك فى صنعها مجموعة من الفنانين المقدونيين والفرس والشرقيين. وقد صنع التابوت الذى حفظت فيه الجثة بعد تحنيطها من خشب الصندل والأرز وكسيت بألواح من الذهب المطروقة وملئت بالطيب؛ ليحفظ الجثمان ويملأ المكان رائحة عطرة. وكان غطاء التابوت من الذهب الموشى بالفسيفساء ووصفه ديودورس المؤرخ الصقلى أن طول التابوت كان اثنى عشر ذراعاً وعرضه ثمانية أذرع تحمله ستة أعمدة أيونية، وفى كل ركن من أركانها لوحة من لوحات النصر، وكان التابوت فى مجموعه وتفاصيله تحفة رائعة. كما تعلو التابوت قبة العرش التى تغطى الفراغ كله، ويحيط برواق التابوت مقصورة من مشربيات، من شبكات من الذهب، يبلغ سمك أضلاعها وخيوطها أصبعاً. وزخرفت على أشكال أوراق شجر الأكاسيا والزيتون وزهور اللوتس المصرى المقدس. ويحمل السقف مجموعة من الأعمدة ذات التيجان الأيونية الطابع، التى تتميز بالجمع بين الفنين المقدونى والفارسى.

ويسير النعش على عجل تجره ٦٤ دابة، تسير فى ثمانية صفوف بكل صف ثمانى دواب مثبتة فى أربعة عروش لقد بدأ الموكب العظيم سيره من بابل فى أواخر عام ٣٢٢ ق.م فى طريقه إلى مصر ماراً بدمشق، وقد تقدمه بطليموس الأول بجيشه حتى حدود سوريا بدعوى تقديم الاحترام للفقيد العظيم، ولكن هدفه الرئيسى كان حمايته من جنود برديكاس الذين كان يخشى تآمرهم عليه، والاستيلاء على جثمان الإسكندر وكنوزه التى يحويها الهيكل المتحرك وتابوته.

وقد نجح بطليموس بهذه الطريقة فى أن يضع يده على جثمانه الذى ألهه المصريون عندما نودى به ابناً للإله آمون، وبذلك أمكن لبطليموس الأول أن ينادى بنفسه ملكاً ووريثاً للعرش كابن للإسكندر الأكبر ومن سلالة الإله آمون.

لقد أجمع المؤرخون على وصول جثمان الإسكندر وموكبه إلى مصر، وهو مايكذب الأسطورة التى انتشرت بين كثير من الناس والتى ارتبطت بوجود تابوت الإسكندر الأكبر فى الأستانة والذى يعتبر من مفاخر متحفها، وقد تم اكتشاف التابوت فى صيدا وقد حلى بمجموعة من النقوش والزخارف البارزة، ومن بينها صورة الإسكندر واسمه. وقد اختلف الأثريون فى تفسير حقيقة ذلك التابوت، فيرى البعض أنه حقيقة تابوت الإسكندر الذى

حفظ فيه جثمانه مدة سنتين، حتى تم صنع التابوت الملكى المصنوع من الذهب والأحجار الكريمة والأخشاب المقدسة الذى نقل فيه إلى مصر. وأن التابوت الحجرى الأصلى، نقله بعض أعوانه إلى صيدا مينائه الأصلى للتبرك به والاحتفاظ به على سبيل الذكرى.

بينما يرى البعض الآخر أنه لأحد كبار ضباطه، الذين استشهدوا خلال المعارك كانوا يتبركون بحمل اسمه وصورته كنوع من التقديس. لقد اتفقت الكتب جميعها على أن الإسكندر قد دفن فى مصر، ولكنها اختلفت على مكان دفنه ووجود مقبرته.

فأولى النظريات التى ظهرت فى مراجع مؤرخى القرنين الخامس والسادس بعد الميلاد تؤكد وجود مقبرته فى معبد آمون فى سيوة، وقد استندوا فى ذلك إلى الوصية التى كتبها الإسكندر قبل وفاته، والتى طلب فيها أن يدفن بجوار أبيه الإله آمون. وقد أكد تلك النظرية ماذكره بعض المؤرخين بأنه احتفل فى معبد آمون فى سيوة بدفن الإسكندر، وكان الناس يحجون لزيارة قبره، والتبرك به بعد أن ألهه كهنة المعبد.

والنظرية الثانية وهى نظرية دفنه فى منف فى معبد بتاح الكبير. ويكتب المؤرخ العربى الكبير الدكتور سليم حسن عن المؤرخ بوزيناس قصة قبر الإسكندر أن جثمانه عندما وصل إلى مصر لم تكن مدينة الإسكندرية قد أنشئت بعد؛ فلأسباب سياسية رؤى أن يدفن فى منف العاصمة التى توج فيها، كما أن المصريين كانوا أكثر تقرباً لمعبد منف، من معبد سيوة الذى كان يعد من المعابد الثانوية بالنسبة لمعبد وكهنة منف كما أن وجوده فى منف يقوى من مركز خلفائه من ملوك البطالسة وعلاقتهم بالشعب، وقد بقى جثمان الإسكندر فى معبد الإله بتاح بمنف مدة أربعين سنة حتى قام بطليموس الثانى بنقله إلى مدينة الإسكندرية، بعد أن تم بناؤها عام ٢٤٦ ق.م، حيث احتفل بدفنه فى احتفال كبير فى معبد ايزيس الجنائزى بالحى الإمبراطورى. وقد وصف أكثر من مؤرخ ممن زاروا قبر الإسكندر - وكان يعرف باسم سوما أى الجثمان العظيم - فخامة المعبد وقاعة الصلاة وقاعة البكاء والدهاليز المحيطة بالمقبرة والتابوت على شكل السرير. وكان المدفن وقاعاته بأكمله تحت الأرض يعلوه هيكل المعبد.

ويؤكد مؤرخو عهد البطالسة بصفة عامة تأكيداً قاطعاً عن وجود مقبرة الإسكندر بالإسكندرية نفسها... فذكر فيلادلف أنه أمر بتشييد مقبرة لوالديه بطليموس وبرنيس فى مكان قريب من الحائط الشرقى لمقبرة الإسكندر العظيم.

كما أن فيلوباتور أقام ضريحاً كبيراً جمع فيه كل آباءه وأجداده والحقه بمقبرة جده الإسكندر.

ولم تكن مقبرة كليوباترا وانونيوس بعيدة عن مقبرة الإسكندر؛ حيث ذكر أنها تقع بالقرب من الجدار الشرقى لمعبد إيزيس بلوزيا، كما أن ما يؤكد وجود قبر الإسكندر فى الإسكندرية ماذكره بلوتارك من أن التابوت الذهبى، الذى كان يحوى جثمان الفاتح العظيم أخذه بطليموس الحادى عشر سنة ١٠١ ق.م ووضع مكانه تابوتاً من الزجاج. كما ذكر البعض أن كليوباترا فى عهد من عهود القحط نهبت النفائس الموجودة فى مقابر آبائها وأجدادها، ومن بينهم الإسكندر نفسه.

وعلى خلاف البطالسة ـ سلالة الإسكندر ـ أبدى أباطرة الرومان بوجه عام احترامهم وتقديسهم لمدفن البطل المقدونى. وعندما دخل أكتافيوس الإسكندرية زار قبر الإسكندر، وركع أمامه ووضع تاجاً من الذهب على رأسه، وكان ينثر الزهور على جثمانه فى أعياد الاحتفالات بالإسكندرية.

كما يذكر التاريخ أن الإمبراطور كراكلا عندما نزل أسطوله عند شاطئ الإسكندرية، كان أول شئ قام بعمله أن توجه إلى قبر الإسكندر ومعه قواد جيشه وصلى أمام القبر، ثم خلع معطفه وبردته ومجوهراته ووضعها فوق الضريح، وقال إنه وفاء لنذر.

وتحكى الأساطير القديمة أن سبتيموس ملأ تابوت الإسكندر بمجموعة من البرديات المتصلة بعلوم السحر والتنجيم وأسرار العرافات أرسلها له كهنة معبد زيوس آمون فى سيوة، وكانت هى السبب فى إخفاء القبر عن أعين الناس حتى لايمسه أحد بسوء، وأنها كانت سبباً فى اختفائه ليبقى فى حماية الآلهة التى ينتمى إليها.

ولكن من المؤكد أن مقبرة الإسكندر بل والحى الإمبراطورى بأكمله قد اختفى فى القرن الثالث بعد الميلاد، فلم يذكر أحد من مؤرخى العهود التالية شيئاً عن قبر الإسكندر ومكانه وماحدث له وسبب اختفائه.

فليس هناك من شك أن قبر الإسكندر بالإسكندرية، مع مجموعة أخرى كبيرة لاتقل أهمية عنه من مقابر ملوك البطالسة، التى لم تحرف وفقاً لشعائرهم الدينية كقبور كل من كليوباترا وانطونيو وبطليموس فيلادلف وبطليموس فيلباتور، وكذلك مجموعة كبيرة من

عظماء وفلاسفة وعلماء الإسكندرية، الذين كانوا يدفنون بالقرب من الإسكندرية تقديساً له وتكريماً لهم، كما ذكر كليماندوس السكندرى عن تقدير المصريين لعلماء وحكماء جامعة الإسكندرية.

ويذكر ايفاريستو بريشيا الذى كان مديراً للمتحف الإغريقى بالإسكندرية فى دراساته القيمة، التى قام بها فى الكشف عن مقبرة الإسكندر أن القديس يوحنا الذهبى ألقى فى إحدى مواعظه يسأل:

«قل لى أين توجد مقبرة الإسكندر؟».

ويحكى قصة بناء كنيسة باسم النبيين الياس ويوحنا، ويقال إنه عند حفر أساسات الكنيسة عثر على كنز مدفون، يحتوى على تحف وأثار تعود إلى عهد الإسكندر، ويعرف المكان باسم ديماس ـ دماس.

كما ذكر أنه حتى القرن السادس عشر كان المسلمون يكرمون ويتبركون بمسجد «ذو القرنين»، وعرف بعد ذلك باسم مقبرة النبى والملك إسكندر، ويقع مسجد النبى دانيال الحالى ـ كما أكد أكثر من كاتب من كتاب العرب الذين زاروا الإسكندرية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر عن زيارتهم لقبر الإسكندر. ووصفه البعض بأنه قد أقيمت فوق أطلال القبر الذى سلبت محتوياته كنيسة مرقص القبطية المتآخمة لشارع النبى دانيال (ميدان كرم الدماس).

لقد أجمعت أكثر المراجع التاريخية الموثوق بها على أن قبر الإسكندر موجود بالإسكندرية، وأنه كان يطل على البحر فى نهاية طريق الأعمدة الذى يتوسط الحى الإمبراطورى، ويمتد من الميدان الكبير إلى المعبد الجنائزى ـ وربما كان هذا الوصف هو الذى حث الباحثين فى السنوات الماضية من إجراء الحفريات فى ميدان تمثال سعد زغلول الذى تنطبق عليه تلك الأوصاف وحديقة القنصلية البريطانية؛ لأنهما على امتداد شارع النبى دانيال، الذى يرجح أنه كان طريق الأعمدة نفسه الذى ينتهى عند شاطئ الميناء الشرقى.

فإذا رجعنا إلى تاريخ مدينة الإسكندرية وما طرأ عليها من تغيير جغرافى وأحداث فى عصورها القديمة نجد أن جميع الحفريات والآثار القديمة التى اكتشفت تقع على عمق، يتراوح بين ٧ ـ ٩ أمتار من سطح المدينة الحالية، مما يؤكد أن المدينة قد تعرضت خلال تاريخها القديم

إلى زلزال كبير وتقلصات أرضية كان من نتيجتها أن هبط سطح المدينة وغمر البحر جزءاً منها وهو الذى تعرضت له الإسكندرية فى القرن الثالث بعد الميلاد ـ وهى الفترة الغامضة فى تاريخ الإسكندرية، والتى ذكرت بعض المراجع القديمة أنها كانت فترة ثورات واضطرابات.

وتدل طبيعة تكوين المدينة وشواطئها وأحواضها المائية أن بعضها لم يكن موجوداً بالمدينة القديمة، مما يرجح أن شاطئ المدينة الأصلى كان عند قلعة قايتباى، وأن حوض الميناء الشرقى نفسه كان ضمن أحياء المدينة الرئيسية، الذى يمتد خلاله طريق الأعمدة والميدان الإمبراطورى الذى هبط بأكمله تحت البحر وغمرته المياه خلال الزلزال، فكان اللغز الذى حير الباحثين والأثريين وضللهم فى تحديد مكان المقبرة ومعبد إيزيس بالقرب من الشاطئ الحالى الذى يعتبر مدخل الحى الامبراطورى وبداية طريق الأعمدة وليس نهايته.

إن المشروع المقترح للكشف عن مقبرة الإسكندر، والحى الإمبراطورى بأكمله بما يحويه من ثروة أثرية لاتقدر بمال (بما فى ذلك معبد إيزيس وتمثالها المشهور، ومقابر كل من كليوباترا وانطونيو، وبعض أباطرة البطالسة، ومقابر علماء الإسكندرية القديمة وعظمائها) يشمل تجفيف حوض الميناء الشرقى بواسطة عزله عن البحر، وكذلك الفتحتين الضيقتين من مد شارع الكورنيش نفسه ـ كما هو مبين فى الخريطة ـ من منطقة رصيف السلسلة ليمر مكان الرصيف العالى ماراً بالقلعة ورأس التين ليستمر، حتى يصل إلى الميناء، ويكمل الطريق الدائرى اللازم لتخطيط الإسكندرية تخطيطاً عمرانياً حديثاً، ثم ترفع مياه حوض الميناء الشرقى إلى البحر حتى يجف الحوض بأكمله ويكشف قاعه مايحويه من أسرار طواها التاريخ ألوف السنين.

لقد تم إعداد ذلك المشروع ضمن مشروع التخطيط السياحى العام لمدينة الإسكندرية، وتقدمت به للجهات المسئولة عام ١٩٦٢ وكان موضع اهتمام الصحافة العربية والأجنبية خاصة، بعدما قامت دار الهلال بنشر تفاصيله وطالبت المسئولين بتنفيذه(١).

وقامت الضفادع البشرية بالقوات المسلحة بعمل بعض التجارب والبحوث التى كشفت فعلاً عن وجود بعض الأعمدة ورأس تمثال من الرخام مدفون فى رمال القاع، يرجح أنه كان تمثال إيزيس الذى كان يرتفع فوق المعبد الجنائزى. وقد رؤى صرف النظر عن المشروع

(١) د. سيد كريم.

لارتفاع تكاليف تنفيذه وعدم وجود الاعتمادات اللازمة، والتى قد لا تتوازن مع مايحتمل استكشافه من آثار وتحف تاريخية.

والرد على هذا الاعتراض له وجهان اقتصاديان؛ فإذا تحققت النظرية وكشف قاع الحوض عن أسراره فظهرت مقبرة الإسكندر وماحولها من آثار مدينة تاريخية بأكملها وهى ثروة أثرية ومادية لاتقدر بثمن ولاتقل أهمية عن مقبرة توت عنخ آمون نفسها التى جذبت أنظار العالم عشرات السنين ـ فإن تكاليف المشروع ومصاريفه ستعوض خلال بضع سنوات من الدخل السياحى الخاص بها وحدها، بصرف النظر عن قيمتها المادية والأثرية.

والوجه الآخر وهو عدم وجود الآثار بما يغطى تكاليف المغامرة، فسيتحول المشروع إلى مشروع استغلالى للتعمير؛ وذلك بواسطة طمى الحوض عن طريق سحب الرمال من القاع الخارجى، وبذلك تتحول المنطقة خلال بضعة أشهر وبمجهود ومصاريف لاتذكر إلى منطقة سكنية تصبح من أهم وأجمل مناطق مدينة الثغر، تبلغ ثمن أرضها عشرات أمثال مشروع ردمها وتخطيطها وإعدادها للتعمير؛ خاصة وأن التوسع العمرانى سيكون فى قلب المدينة نفسها وليس فى أطرافها.

أين توجد مقبرة الإسكندر الأكبر؟ (١)

كانت حياة الإسكندر الأكبر على قصرها أسطورة تداولها كتاب العالم وأثريوه، وشغلت المؤرخين والباحثين خلال مختلف العصور. وكان ختام الأسطورة أكثر غموضاً، وينتظر الجواب المقنع على السؤال الحائر: أين مقبرة الإسكندر؟

لقد ورد فى وصية الإسكندر التى كتبها قبل وفاته، أمنيته أن يدفن فى واحة آمون بسيوة بالقرب من أبيه الإله زيوس آمون. ثم ورد فى برديات ديودورس الصقلى الذى وصف جنازة الإسكندر ونعشه الذهبى، الذى وصل موكبه إلى مصر فى أواخر سنة ٣٢٢ ق.م، بأنه لم يكمل رحلته إلى سيوة، بل انتقل إلى منف عاصمة البلاد التى توج فيها ملكاً على مصر، كما وصف تابوته الذى صنع من المرمر الذهبى على شكل سرير، ودفن فى معبد جنائزى خاص

(١) بحث للدكتور سيد كريم.

بالقرب من معبد الإله بتاح . بينما أجمع أكثر من مؤرخ من مؤرخى عصر البطالسة ومؤرخى الرومان بأنه دفن فى مدينة الإسكندرية، التى أسسها وأصبحت عاصمة البلاد التى تحمل اسمه .

كانت تلك المواقع الثلاثة موضع اهتمام من الباحثين وعلماء الآثار ابتداء من القرن الثامن عشر وحاول كل منهم بما تحت يديه من أدلة ومستندات تحديد مكان المقبرة، وكان آخرها الحفائر التى أجريت أخيراً فى أكثر من موقع بالإسكندرية وكلما زادت الحفريات عمقاً . . زاد السر غموضاً . . فأين مقبرة الإسكندر الأكبر ؟ .

الإسكندر الأكبر :

اشتهر فيليب المقدونى بفتوحاته المشهورة التى أخضع بها أثينا وأسبرطة وشرق البحر الأبيض، ثم وضع خططه للزحف على بلاد الفرس، ولكنه قتل عام ٣٣٦ ق.م بعدما أعد عدته للإغارة عليها .

فخلفه ابنه الإسكندر ليحقق مشروعات أبيه، فاكتسب بين عظماء الفاتحين اسماً خالداً . . . كانت سنه عند توليه العرش عشرين سنة، وكان أرسطو قد باشر تربيته منذ الثالثة عشرة من عمره . ودرس الفلسفة والأدب والهندسة والرياضيات على يد أساتذة وحكماء الإغريق، وشب متشبعاً بالحضارة المصرية التى تلقنها عن أستاذه أرسطو، الذى درس مع أفلاطون فى جامعات مصر القديمة وعبادة زيوس آمون قبل حضوره إلى مصر .

فى سنة ٣٣٤ ق.م سار بجيشه نحو آسيا فعبر البوسفور والدردنيل، وهزم جيش فارس، واستولى على المستعمرات الإغريقية فى آسيا الصغرى، ثم التقى بالفرس مرة أخرى بقيادة دارا الثالث فانتصر عليه، ثم اتجه الإسكندر جنوباً وأخضع المدن الفينيقية، ثم استولى على مدينة صور . .

ثم سار نحو مصر، وكانت إذ ذاك تحت حكم الفرس، ودخل مصر فى خريف عام ٣٣٢ ق.م ولم يجد صعوبة فى دخولها فقد كان المصريون ساخطين على الفرس، حتى أنه لم يجد أبوابها مفتوحة فحسب بل وجد أن المصريين قد انضموا إليه لتحرير بلادهم من المستعمر الفارسى .

كان أول عمل قام به أن توجه بأسطوله إلى منف، حيث اعتنق الديانة المصرية وقدم قرباناً للعجل أبيس، كما اعتنق كثير من قواده الديانة المصرية، وأقام الحفلات الرياضية والموسيقية احتفالاً بتتويجه، وأحضر لها من بلاد الإغريق أشهر المغنين والموسيقيين والراقصات وقدم الهدايا والقرابين للمعابد المصرية وكهنتها.

ومن منف اتجه بجيشه براً نحو الجنوب حتى وصل إلى الشلالات وقام بزيارة الكرنك، وقدم القرابين للإله آمون، وأمر بإصلاح بعض المعابد وخاصة معبد تحتمس الثالث القائد البطل، وسجل زيارته وتقربه للإلهة على جدران المعبد.

وعند عودته إلى منف انتقل منها عن طريق فرع نهر النيل الكانوبى، الذى نصب عند الإسكندرية فى بحيرة مريوط، ومنها اتجه إلى واحة سيوة لزيارة معبد زيوس آمون.

وتعد زيارة الإسكندر الأكبر لسيوة ومعبد آمون، ثانى حدث هام فى حياته بمصر بعد زيارته لمنف. كان لمعبد آمون أهمية خاصة عند الملوك والقواد الإغريقيين بصفة خاصة، يتبركون بالإله زيوس آمون ويؤمنون به ويستشيرونه فى شئونهم، وكان اهتمامهم به أكثر من اهتمام المصريين أنفسهم الذين يعتبرونه أقل أهمية ومكانة بجانب معابد آمون فى منف وطيبة.

ويعتقد الإسكندر أن الإله آمون الذى آمن به فى صورة زيوس، كان له الفضل فى انتصاراته وفتوحاته وحمايته وشل قوة أعدائه الذين يفوقونه عدداً، فقد قرر أن يزور الإله فى سيوة ويتلقى استشاراته قبل أن يكمل غزواته ليحتل العالم.

كما أراد أن يؤكد - كما ذكر المؤرخ الإغريقى كالستينس الذى رافقه فى رحلته - أنه مثل هيراكليس وبرسيوس الذى تنحدر سلالته من نسلهما وكلاهما ابن زيوس الإله وأمه من البشر، لذا فكانت رغبته وأمنيته أن ينسب نفسه للإله آمون واحة سيوة بالذات زيوس آمون التى ذكرت فى أشعار البطولة الإغريقية القديمة.

وقد ذكر المؤرخون - ومن بينهم استرابون وكالستينس - كثيراً من الأساطير، والتى وردت فى برديات بطليموس الأول منها أن الإسكندر ضل الطريق فى مجاهل الصحراء فخرجت له الكوبرا (سيدة الحياة) وحامية المعبد لتسير رافعة الرأس أمام القافلة حتى أوصلته إلى المعبد، وقصة دخوله محراب الإله آمون، وأنه سمع الإله يناديه بقوله «يابنى» وأنه باركه فى حروبه

المقدسة وناداه ليأتى إلى سيوة لزيارته. ويؤكد المؤرخ سترابون أنه شاهد بنفسه تمثال آمون المصنوع من أربعة عشر جزءاً من مختلف المعادن والأحجار النفيسة، وكيف كان يجيب عن أسئلة الإسكندر بحركة من يديه وإيماءة من رأسه، كما سمعوه وهو يخاطب الإسكندر بقوله: (١)

«إنك ابنى وإنى أعطيتك الشجاعة وأمرتك أن تحضر لزيارتى... انى أمنحك السيطرة على كل البلاد وكل الأقطار الأجنبية تحت قدميك».

(١) مجلة الهلال - نوفمبر ١٩٧٤، د. سيد كريم.

الفصل الثانى :

الإسكندرية
فى
العصور القديمة

الإسكندرية فى العصور القديمة

أسس الإسكندر مدينة الإسكندرية عام ٣٣١ (ق.م) مكان مدينة راقوده، وفوق ما كان لهذا الموقع من مميزات حربية.. فقد كان الإسكندر يبغى ربط مصر ببلاد اليونان وممالك البحر الأبيض المتوسط، ويجعل الاتصال بينها سهلاً يسيراً. وقد وكل أمر تخطيط المدينة إلى مهندسه دنوقراطس. أما مراقبة المالية فقد وكلها إلى إقليمونس، الذى أشرف على تنفيذ المشروع، وقام بنقل كثير من سكان مدينة كانوب (أبوقير) إلى المدينة الجديدة. وقد ذاع صيت مدينة الإسكندرية فى عهد البطالسة وكانت تعد ثانية مدن العالم، وأطلق عليها «مدينة المدن». وقد وصفها استرابون بأنها «مستودع عام»، وقال عنها فيلون: إنها مدن عدة منتظمة فى مدينة واحدة.

ولاشك أن تأسيس مدينة الإسكندرية أضعف المركز التجارى الذى كانت تشغله مدينة نقراش (كوم جعيف الحالية)، رغم أنها ظلت معقلاً مهماً للثقافة الهيلينية. على أنه يجب ألا يغيب عن ذهننا أن الإسكندرية فى عهد البطالسة كانت منعزلة عن بقية القطر المصرى، وكانت علاقاتها بأقاليم البحر الأبيض أكثر منها بمصر.

ويمكننا القول إن الإسكندرية بلغت ذروة أبهتها فى منتصف القرن الأول قبل الميلاد، حينما بدأ الرومان يتدخلون فى الشئون المصرية وفى الخلافات بين كليوباترا وزوجها بطليموس الرابع عشر، غير أن مقدم يوليوس قيصر إليها، حينما كان يتعقب بومبى، واشتباكه فى الحرب الأهلية مع كليوباترا ضد بطليموس كان سبباً فى حرق الأسطول المصرى وتدمير المكتبة، كما سنبين ذلك فيما بعد.

وقد نقل مارك أنطوان إلى الإسكندرية كثيراً من التحف ولكن أغسطس قيصر أعاد هذه التحف ثانية إلى بلاد اليونان. وقد فقدت الإسكندرية فى العهد الرومانى كثيراً من مركزها

السياسى، ولكن الأباطرة الرومان لم ينسوا مكانتها العالمية. ونحن نعلم أن الامبراطور فازبازيان أعلن نفسه امبراطوراً بالإسكندرية (عام ٦٩م) كما أن ابنه الامبراطور دوميتيانس (٨١ - ٩٦م) زارها واشترك مع علماء الأكاديمية فى محاوراتهم التى كانت شائعة فى ذلك العصر. وفى عهد تراجان (٩٨ - ١١٧م) كان لثورات اليهود وشغبهم بالمدينة أثر سيئ، ولم تستقر الأمور إلا فى عهد هادريان (١١٧ - ١٣٨م) الذى زار المدينة مرتين، كما قد زارها من الأباطرة: مارك أورليوس (١٦١ - ١٨٠م)، وكومودس (١٨٠ - ١٩٣م)، وسفيروس (١٩٣- ٢١١م). على أن عهد كراكلا (٢١١ - ٢١٧م) كان عهد شؤم على المدينة فقد قتل كثيراً من أهليها وخرب كثيراً من مبانيها وأغلق الأكاديمية. كما أن أورليان (٢٧٠ - ٢٧٥م) كان معول هدم وتخريب أيضاً. وقد غدا حى البروكيوم منذ ذلك الوقت خراباً بلقعاً. ولما انتشرت المسيحية بمصر واشتد الصراع بينها وبين الوثنية أصاب الإسكندرية ضرر كبير، فقد هدمت معابدها. فهدم تيوفيلس عام (٣٩١م) معبد السرابيوم، وفى عهد جستنيان (٥٢٧- ٥٦٥م) أغلقت مدارسها. ولما استولى الفرس على الإسكندرية عام (٦١٩م) دمروا كثيراً من الأديرة وبعض الكنائس، وفى عام (٦٤١م) بعد حصار دام أربعة عشر شهراً استولى عمرو بن العاص على الإسكندرية.

السكان:

نحن نعلم أن مدينة الإسكندرية فى نظامها وثقافتها أيام البطالسة كانت مدينة إغريقية فى كل مظاهرها؛ فالإغريق هم الذين كانوا يتمتعون بالحقوق المدنية. وقد قدر ديودور الصقلى عدد من تمتعوا بتلك الحقوق عام (٦٠ ق.م) بـ ٣٠٠,٠٠٠ نسمة. فإذا أضيف إلى ذلك عدد الأرقاء، بلغ عدد سكانها فى ذلك الوقت نصف مليون نسمة. والإسكندرية منذ القدم مدينة الأجانب وكانت ممثلة بها شتى الجنسيات. ويمكننا أن نميز بها فى عهد البطالسة الطبقات الآتية:

١ - السكان الذين كانوا يتمتعون بالحقوق المدنية.

٢ - المقدونيون وكان لهم نفوذ كبير فى الجيش والبلاط.

٣ - اليهود وقد كان لجاليتهم الكبيرة دستور خاص بهم ولكنهم من جهة دستور الإسكندرية لم يتمتعوا بالحقوق المدنية. وقد قيل إن بطليموس الأول هو الذى جلب من فلسطين عدداً كبيراً منهم، وأصبحت جاليتهم منذ القرن الثالث قبل الميلاد فى ازدياد مطرد.

وكان لهم نوع من الاستقلال الذاتى، غير أنهم كانوا مكروهين من الإغريق والمصريين على السواء.

٤ ـ المصريون الوطنيون : وكانوا يقطنون راقودة وجزيرة فاروس ولما لم يكن لهم ثقافة هيلينية كانوا دائماً يعدون فى المدن الإغريقية عنصراً أجنبياً. وقد كان الإسكندريون منذ القدم أهل جد محبين لجمع المال، غير أنهم كانوا قوماً قلباً تسيرهم أهواؤهم وعواطفهم. ولم يشغل الإسكندريون أنفسهم كثيراً بالأحداث السياسية فكانوا يعيشون ليومهم فى مرح وحبور. وفى خطاب للإمبراطور هادريان وصف دقيق للخلق الإسكندرى.

وقد ذكر استرابون كثيراً من صنوف اللهو عند الإسكندريين فى مدينة كانوب (أبوقير الحالية). وقد شبهت الإسكندرية فى العصور القديمة من حيث نشاطها العقلى وجمال مبانيها وملاهى سكانها بفلورنس أيام أسرة مديشى. على أن الروح التجارية كانت أبرز صفات أهل الإسكندرية، ولاغرابة فالمدينة مدينة إغريقية، وفضلاً عن ذلك كانت أكبر مخزن للغلال فى العالم لوفرة ماكانت تنتجه مصر من هذا المحصول. وكانت تتجمع عندها التجارة الآتية من الهند كما كانت تربطها بالبحر الأحمر قناة تنقل فيها المتاجر الآتية من الشرق ثم تنقل منها إلى أوروبا. ولاشك أن هذا كان منبع ثروة عظيمة، ظهر أثرها فى نشاط الأكاديمية والمكتبة وساعد البطالسة على القيام ببحوث مستفيضة فى الرياضة والطب والجغرافيا وغير ذلك من العلوم والفنون.

تخطيط المدينة :

إن معلوماتنا عن تخطيط الإسكندرية ترجع إلى ما استقيناه مما كتبه الأقدمون أمثال استرابون، وبلينى، وديودور الصقلى وبلوتارخ وغيرهم. وقد استفاد علماء القرن السادس عشر والسابع عشر من هذه المؤلفات، وجمعوا ملاحظات الأقدمين وعلقوا عليها شروحهم، فكتب بونامى ثلاث رسائل عن تاريخ مدينة الإسكندرية وآثارها ووصف أجزاءها وصفاً دقيقاً. وبعد بحوث بونامى كانت للرحلات التى قام بها نوردن وپوكوك (١٧٣٧ ـ ١٧٣٨) أثر طيب، فقد نوّها بما أصاب آثار الإسكندرية من تلف. وبعد ذلك بثلاثين سنة أصدر (D'Anville) كتابه، وقد تكلم فيه عن تخطيط الإسكندرية، وظل ما كتبه أهم المراجع إلى مقدم الحملة الفرنسية.

على أن «لبير» قد خلط بين الأكاديمية وبين الجمنازيوم. وقد قام أخيراً كثير من العلماء ببحوث قيمة عن آثار الإسكندرية وتخطيطها، فنجح محمود باشا الفلكي بأمر من الخديوى إسماعيل فى عمل تخطيط للمدينة القديمة، عده العلماء عملاً مجيداً. ثم كتب نوروتسس كتابه عن الإسكندرية عام (١٨٨٧ - ١٨٨٨). أما الدكتور بوتى الذين عين عام ١٨٩٢ أمينا للمتحف اليونانى الرومانى، فقد قام بحفريات ونشر نتيجة حفرياته. ثم تلاه كثير من علماء الآثار الذين شغلوا أنفسهم ببحوث عن تخطيط الإسكندرية، على أنه لابد أن نذكر أنه من الصعب الوصول إلى تخطيط دقيق عن المدينة القديمة. وكل وصف لذلك هو وصف تقريبى للغاية، لأن معظم آثار المدينة لما يكشف عنها بعد.

كانت الإسكندرية على شكل مستطيل طوله أربعة أميال وعرضه ثلاثة أرباع الميل، يحدها البحر المتوسط شمالاً ومياه بحيرة مريوط العذبة جنوباً، وكانت تمتاز باستقامة شوارعها العريضة وكان أكثر هذه الشوارع شهرة الشارع الكانوبى، وكان يمتد طولاً من البوابة الكانوبية فى الشرق إلى البوابة الغربية، وكان يزيد عرضه عن ٣٠ ياردة أو مايقرب من ١٠٠ قدم. وكانت المدينة محصنة ولها أربع بوابات، فكانت البوابة الغربية تصل المدينة «بمدينة الموتى»، وكانت الجنوبية أو بوابة الشمس تصلها ببحيرة مريوط كما أن البوابة الشمالية أو بوابة القمر كانت تصل المدينة بالميناء. وكان للإسكندرية ميناءان منفصلان بطريق يسمى قدر طوله بنحو ١٢٣٥ متراً. وكانت هذه الطريق تصل المدينة بجزيرة فاروس، وعلى هذه الجزيرة أمر بطليموس الأول مهندسه سوسطراطس بتشييد الفنار، الذى أتمه بطليموس فيلادلف. وقد ذكر كل من «استربون» و«بلينى» وصفاً لهذا الفنار الذى بلغ ارتفاعه ١٢٠ متراً، وكان الملاحون يرون نوره وهم على بعد ٣٠ كيلومتراً.

ومن وصف «استرابون» ومن ملاحظات «فان براشم» عن النقوش التى وجدت فى تلك المنطقة يمكننا القول إن قلعة قايتباى أنشئت على أطلال الفنار القديم.

أما الميناء الشرقى فقد كان الميناء الكبير للمدينة وكان مدخله ضيقاً صخرياً، وكان يغلق بسلاسل ضخمة ويحميه من الشرق. ومن الغرب جزيرة فاروس، وكانت معظم القصور الملكية والمبانى الفخمة تطل عليه، وعند هذه القصور نزل يوليوس قيصر وألقى مرساه. وإلى غرب طريق كان الميناء الغربى المسمى (Eunostos) «العود السعيد» وفى هذا الميناء كانت

تصب قناة الإسكندرية، التى كانت تخرج مهن الفرع الكانوبى على بعد (٢٧ك.م) من الإسكندرية، وكانت تنقسم إلى فرعين: فرع يذهب إلى جهة كانوب محاذياً للساحل، وفرع نحو الإسكندرية حيث يصب فى ميناء «العود السعيد».

ولكن مصب هذه القناة القديمة كان يبعد عن مصب المحمودية نحو الشمال الشرقى بمقدار كيلومتر. وكانت مياه الشرب التى تؤخذ من هذه القناة تخزن فى صهاريج تحت الأرض، وعند مقدم الحملة الفرنسية كان لايزال بالإسكندرية من هذه الصهاريخ مايربى على ٣٠٨ صهاريج. وقد أشار محمود باشا الفلكى عام ١٨٧٢م إلى ٧٠٠ صهريج منها.

أما بحيرة مريوط فكانت فى غاية النشاط التجارى، فكانت تصل إليها القنوات من النيل وتنقل بواسطتها السلع المختلفة، ولذا حاول يوليوس قيصر الاستيلاء عليها لمركزها التجارى، ولكى يضمن مورداً من المياه العذبة أيضاً.

وكانت الإسكندرية كما ذكر فيلون مقسمة إلى خمسة أحياء، فإذا خرج الإنسان من (البوابة) الكانوبية لقى الهبدروم. وقد حدد استرابون موقعه بأنه كان فى نهاية الشارع الكانوبى، وعلى مقربة منه كانت ضاحية نيقوبوليس (Nicopolis) الواقعة على البحر وهى التى شيدها أغسطس قيصر تحديداً لانتصاره على مارك أنطوان. إن ضاحية ايلوزيس (Eleusis) حيث كان يقطن الشاعر قليماقوس كانت منعزلة عن الإسكندرية، وكانت تقع على القناة الكانوبية. (بين الحضرة وحدائق النزهة)، وكان يهرع إليها الإسكندريون فى أعيادهم وأسمارهم يلهون ويصخبون. وكان حى البروكيوم أكثر أحياء المدينة سكاناً وأعظمها فخامة، وكان محاطاً بالأسوار المنيعة، وكانت القصور الملكية وحدائقها تطل على الميناء الكبير، وكانت تقع بين البحر والشارع الكانوبى، وكانت الأكاديمية والمكتبة تؤلفان جزءاً من هذه القصور، كما ذكر استرابون وكان السوما جزءاً من هذه القصور أيضاً، وبه كان قبر الإسكندر الأكبر وقبور البطالسة. وقد ذكر تاتبوس (أوائل القرن الخامس الميلادى) أن السوما هذا كان فى حى نسب إليه، بينما ذكر استرابون أنه كان فى حى البروكيوم، والواقع أن الشارع الكانوبى كان يفصل الحيين بعضهما عن بعض. وكان يقع فى نهايته الجمنازيوم بحدائقه الفيحاء وأعمدته وقبابه الفخمة، ومن أهم المبانى التى كانت تطل على الميناء: «القيصرية» وكان هذا معبداً شيدته كليوباترا تخليداً لذكرى مارك أنطوان، وقد أتم بناءه

أغسطس قيصر ووصفه «فيلون» وصفاً دقيقاً وقال عنه : إنه لم يكن فى العالم القديم معبد يضارعه عظمة . وذكر «بلينى» أن مسلتين كانتا تزينان مدخله ، وهاتان كانتا فى الأصل فى معبد عين شمس ، وكانت تحملان اسم طوطيس الثالث ورمسيس الثانى وسيتى الأول . وقد أهديت إحداهما لإنجلترا عام (١٨٧٧م) وأهديت الأخرى للولايات المتحدة عام (١٨٧٩م) . وقد نهب جنود قسطنطين الثانى هذا المعبد عام (٣٩٦م) وأخيراً بدله المسيحيون كنيسة. ولاشك أن الأكاديمية والمكتبة كانتا واقعتين فى جنوب هذا المعبد ، وقد تمكن كل من «بارئى» وكلبل من تحديد موقعيهما وأنهما كانتا شمالى الشارع الكانوبى. ومن المرجح أنهما كانت فى المنطقة التى تشغل الآن شارع المسلة والنبى دانيال وفؤاد وشريف ، أما الحى الوطنى الذى كان يسكنه المصريون فكان حى راقوده. ولاشك أنه لم يكن من حيث روعة مبانيه كحى البروكيوم ، وإذا عرفنا الفرق بين الأحياء الوطنية الآن فى القاهرة والإسكندرية وبين الأحياء الأوروبية أمكننا أن ندرك بسهولة الفرق بين حى راقوده الوطنى وحى البروكيوم الإغريقى. وخلف هذا الحى على ربوة عالية كان يشرف السرابيوم ، الذى حدثنا عنه اميانس مارسيلانس بأنه لم يفقه روعة فى العالم القديم إلا الكابيتول بروما ، وقد دمره المسيحيون عام (٣٩١م) ونهبوا ماكان به من تحف ونفائس. أما عمود السوارى فليس من شك فى أنه أنشئ بعد عام (٢٩٧م) . وكان متصلاً بها المعبد مكتبة ضخمة أجمع المؤرخون على أنها زالت على يد المسيحيين ، وسنعالج هذا بالتفصيل فيما بعد . وفى أقصى الغرب من المدينة كانت مدينة الموتى وكانت تحيط بها حدائق متسعة شاهدها استرابون. ولايزال القبارى يذكرنا بأن هذا الحى من المدينة كان مدينة الموتى فى العالم القديم.

الفصل الثالث :

١ - المكتبة والأكاديمية في عهد بطليموس الأول (سوتر) ٣٠٥ - ٢٨٣ ق.م

■ لم تكن الإسكندرية في عهد البطالسة مركزاً دولياً للتجارة فحسب، ولكنها بمكتبتها وأكاديميتها حافظت على ما أنتجه العقل اليوناني من آداب وعلوم. ولو أن بطليموس الأول كان حربى النشأة إلا أنه أراد أن ينقل إلى مصر الثقافة «الهيلينية»، فحاط نفسه كما فعل الإسكندر من قبل بالعلماء والأدباء، وراسل الفلاسفة بجميع بلاد اليونان كما أخبرنا بلوتارخ، اشترك معهم في محاوراتهم ومبارياتهم. وكان ببلاطه نخبة من العلماء والأدباء منهم فيليطاس، الذى عهد إليه بتربية ابنه بطليموس فيلادلف. فلقنه حب العلم والعلماء؛ ثم الرياضى إقليدس، الذى كان يدرس للملك العلوم الرياضية والهندسية، والذى ألف للمكتبة كتباً عدة؛ ثم المهندس سوسطراطس الذى شيد الفنار. وقد ساعد استتباب الأمن والسلام في مصر بطليموس الأول على تنفيذ برنامجه الإصلاحي؛ ليضمن لمصر سعادة ورفاهية، إذ بينما انشغل قواد الإسكندر بحروبهم الطاحنة، كانت روح الطمأنينة مرفوفة على مصر، فوطد بطليموس العزم على أن يجعل من الإسكندرية، ليس فقط القلب التجارى للعالم، بل فوق ذلك المنارة التى يشع منها النور الذى يهدى العالم أجمع. وقد ساعده وشد أزره في تنفيذ برنامجه ديمتريوس، الذى عنى بالأمور السياسية فى أثينا حتى سلمت إليه مقاليد الأمور بها بين عامي (٣١٧ - ٣٠٧ ق.م). وقد سيطر على أثينا مدة عشر سنوات، انتعشت فيها البلاد، كما أصلح القوانين. إلا أن الدهر قلب له ظهر المجن، فاضطر إلى الهرب إلى طيبة ثم هرع إلى بطليموس الأول ليساعده على تأسيس مجده، وقد نال الحظوة عنده، وأصبح مستشاره الوحيد وأصلح القوانين، ووضع نواة المعاهد العلمية المختلفة، وجعل من الإسكندرية أثينا الثانية علماً وفناً(١).

(١) المراحل التاريخية لتطور المكتبة والأكاديمية فيما بين عام ٣٠٥ ق.م وحتى عام ٦٠٠م مأخوذة من دراسة للدكتورة محمد أحمد حسين عن: مكتبة الإسكندرية فى العالم القديم ١٩٤٣.

وقد رافقه الفلاسفة الذين كرهوا البقاء فى أثينا الثائرة، فاتخذوا من الإسكندرية وطناً ثانياً، وظل ديمتريوس فى مركزه هذا إلى أن تولى الحكم بطليموس فيلادلف فنفاه، وذلك لأن ديمتريوس كان قد أشار بإبعاد بطليموس هذا عن الحكم لعدم أحقيته، وقد مات ديمتريوس فى منفاه كمداً، وتجلى النشاط العلمى فى أروع مظاهره فى الأكاديمية والمكتبة. وتاريخ المكتبة متصل أوثق الاتصال بتاريخ الأكاديمية؛ فقد كانت أغراضهما واحدة. وقديماً كان المشرفون على المكتبة علماء وبحاثة يوالون أبحاثهم فى الأكاديمية والمكتبة، فلاغرابة إذا تكلمنا كثيراً عن الأكاديمية؛ لأن فى ذلك تعريفاً بالمكتبة ومركزها الثقافى.

اختلف الأقدمون حول المؤسس الحقيقى للمكتبة؛ فمنهم من نسب ذلك إلى بطليموس الأول، ومنهم من عزاها إلى بطليموس فيلادلف، ومنهم من قال إنها أسست فى المدة بين عامى (٢٨٦ ـ ٢٨٤ ق.م) حيث كان فيلادلف مشتركاً مع أبيه فى الحكم. ومن الذين قالوا بالرأى الأول كلمنت الإسكندرى (١٦٠ ـ ٢٢٠م) وبلوتارخ (٥٠ ـ ١٢٥)، ومن الذين يدينون بالرأى الثانى يوزيب (٢٦٥ ـ ٣٤٠م)، وسنت اغسطين فى مدينة الله.

على أن هذا الخلاف قد أثاره مادار من الجدل حول الترجمة السبعينية للعهد القديم والروايات المتضاربة بشأنها، وملخص ذلك أن أرستيس فى خطاب له إلى أخيه فيلوقراطس، ذكر أن ديمتريوس أمين مكتبة الإسكندرية اقترح على بطليموس الثانى (٢٨٥ ـ ٢٤٧ ق.م) أن يترجم التوراة إلى اللغة الإغريقية لتكون إحدى ذخائر المكتبة. وقد وافق بطليموس على ذلك الاقتراح، وأرسلت بعثة إلى إليعازر (Eleazar) ببيت المقدس، وعرضت عليه الاقتراح فوافق أيضاً وأرسل اثنين وسبعين عالماً إلى الإسكندرية للقيام بهذه المهمة، وقد قام هؤلاء العلماء مع ديمتريوس بالترجمة فى اثنين وسبعين يوماً، ولما تمت قرئت على يهود الإسكندرية بحضور فيلادلف وديمتريوس فوافقوا عليها. ومن هنا جاء اسم الترجمة السبعينية، ثم عاد العلماء إلى بيت المقدس مكرمين معززين.

هذه هى الرواية التى نشرها يوسفوس وغيره من المؤرخين، وهى محض اختلاق، فنحن نعلم أن ديمتريوس هذا كان قد أفل نجمه فى عهد بطليموس الثانى، ثم إنه من الثابت أن يهود الإسكندرية الذين كانوا أكثر ثقافة من يهود فلسطين، كانوا أكثر دراية باللغة الإغريقية من يهود فلسطين، فمن المرجح أنهم هم الذين قاموا بترجمة التوارة إلى اللغة الإغريقية. ولا يبعد أن ناشر هذه الرواية كان يريد أن يكسب الترجمة التى قام بها اليهود فى مصر صفة أصلية

محترمة، ولايخفى أن ترجمة العهد القديم إلى اللغة الإغريقية قد تمت فى عصور مختلفة. ويحتمل أن بطليموس الأول هو الذى أمر يهود الإسكندرية بترجمة الكتب الخمسة من العهد القديم إلى اللغة الإغريقية، وذلك ليودعها مكتبته التى شيدها. ويرجح هذا الرأى أن ديمتريوس هو الذى شيد عظمة بطليموس الأول، ووضع تحت تصرفه خبرته التى اكتسبها مدة إدارته لحكومة أثينا، فديمتريوس كان يعلم الشئ الكثير عن مكتبة أرسطاليس التى قال عنها استرابون إنها أول مكتبة أنشئت، وأن البطالسة قد حاكوها فى إنشائهم لمكتبة الإسكندرية. ونحن نعلم أن مكتبة أرسططاليس قد انتقلت إلى ثيوفراسطس المتوفى عام (٢٨٧ق.م)، والذى انتقلت إليه إدارة اللسيوم (عام ٣٢٢ق.م) بعد موت أرسططاليس. ثم انتقلت المكتبة إلى نيليس، وقد كان ديمتريوس صديق ثيوفراسطس، فمن الطبيعى أن يوصى ديمتريوس بطليموس الأول بإنشاء مكتبة على غرار ما رآه فى أثينا. ويزعم بك أن بطليموس الأول هو الذى جمع الكتب الموجودة فى المعابد المصرية وجعلها نواة للمكتبة التى شيدها. ولما كان مقدم ديمتريوس إلى مصر حوالى عام (٣٠٥ق.م)، وكان هذا الوقت وقت حروب مع أنطيغونس فلايبعد أنه لما استقرت الحال أنشأ بطليموس الأول المكتبة بين عامى (٣٠٠ - ٣٩٠ق.م).

فى الحق إن المكتبة والأكاديمية بلغتا ذروة عظمتهما فى عهد فيلادلف. ولايبعد أن يكون هذا مما جعل الكثيرين ينسبون تأسيس المكتبة إليه، غير أنه غير محتمل أن تنشأ المكتبة وتبلغ ذروة مجدها فى عهد ملك واحد خلال أربعين عاماً، فبطليموس الأول هو الذى بدأ بفكرة المكتبة وسار خلفه على سياسته، وقد بناها فى الجهة الشرقية من القصر الملكى، وقد اختلف فى تحديد موقعها أكانت مطلة على البحر أم بعيدة عنه، وسنعرض لذلك فيما بعد.

وقد تحدث عن ذلك ڤيتروفيوس بوليو (٨٨ - ٢٦ ق.م) الذى رافق يوليوس قيصر فى حروبه. وقد جمع سوتر لمكتبته مخطوطات من أثينا وردوس ورتب الموظفين والنساخ، وأقام المباريات الأدبية بين العلماء وأغدق عليهم المنح والرتب.

أما من حيث أمين المكتبة فلقد كان الملوك وأباطرة الرومان يصدرون مراسيمهم بتعيينه. ولاشك أنه كان عضواً عاملاً فى الأكاديمية، وكانت مهمته شاقة فكان عليه أن يتعرف المخطوطات القديمة ليعرف منها الأصيل والدخيل، ويرسل الرسل إلى بلاد اليونان لجلب كل ذلك. وليس من الصواب فى شئ ماقيل من أن أمين المكتبة ومدير الأكاديمية كانا شخصاً

واحداً، فقد كان مدير الأكاديمية كاهناً من كهنة المعبودة إيزيس، التى كانت الأكاديمية تنتسب إليها، أما أمين المكتبة فلم يكن كاهناً. وقد قيل إن أول من شغل وظيفة أمين المكتبة هو ديمتريوس فالروس، إلا أنه يبعد أن يكون رجلاً سياسياً ومستشاراً للملك، يجد عنده وقتاً يكرسه للمكتبة وشئونها. على أن سويداس ذكر أن زينودوتس كان أول أمين للمكتبة، وكان هذا تلميذاً لفيليطاس، وقد قام على نشر أشعار هومر بعد أن جمع مخطوطات عدة، وقام بالموازنات اللازمة، وكان ذلك حوالى (٢٧٤ق.م) ثم أتم عمله هذا بعد أرسفانيس البيزنطى على أن سويداس قد أوقعنا فى حيرة، فهو يذكر أن زينودوتس كان مربياً لبطليموس فيلادلف، مع أننا نعلم أن فيليطاس أستاذ زينودوتس كان أستاذاً أيضاً لفيلادلف.

وقد نسب بعض المؤرخين إلى ملوك برجامون السبق فى تأسيس المكتبات والأكاديميات، وقيل إن البطالسة قد حاكوهم فى ذلك، ولكن استرابون حين تكلم عن مكتبات برجامون وتقدمها، نسب ذلك إلى أومنس الثانى (١٩٧ ـ ١٥٨ق.م)، وهذا الملك متأخر عن عهد بطليموس الثانى (٢٨٥ ـ ٢٤٧ ق.م). أما معاصر بطليموس فيلادلف، فكان أومنس الأول (٢٦٢ ـ ٢٤١ق.م)، ولايذكر استرابون عنه شيئاً من حيث الاهتمام بالعلم وتشجيع الحركة الفكرية. فملوك برجامون متأخرون فى حضارتهم عن البطالسة، فكيف يمكن لدولة صغيرة كبرجامون أن تتبارى مع مملكة عظيمة غنية، ونحن نعلم أن بطليموس السابع (١٤٥ ـ ١١٦ق.م) نظراً لحاجته المترايدة للبردى أصدر قراراً بمنع تصديره للخارج.

وليس بصحيح ماذكره بارتى من أن الذى أصدر هذا القرار هو بطليموس الثالث (٢٤٧ ـ ٢٢١ق.م)، وقد جعل هذا المنع مركز ملوك برجامون حرجاً غاية الحرج، ولكنهم استعاضوا عنه بجلود الحيوانات الصغيرة، فكان لهذا الكشف فضل عظيم فى العالم القديم، فالرقاق لايتسرب إليها العطب بسهولة كالبردى.

الفصل الرابع :

الأكاديمية Museum

■ لم يتفق المؤرخون أيضاً على من أسس الأكاديمية فاختلفوا كما اختلفوا فى أمر المكتبة، فمنهم اثنيوس (Athenaeus)، من رجال القرن الثانى، الذى كان من المتعصبين لفيلادلف، والذى جزم بأن فيلادلف هو الذى أسس الأكاديمية، غير أننا نعلم أن الأكاديمية فى السنين الأولى عن حكمه كانت قد خطت خطوات عظيمة، وهذا يرجح أنها أسست ومضى زمن كاف لبلوغها هذا التقدم، وعصر سوطر ـ كما نعلم ـ كان عصر نهضة وتشجيع للعلماء حتى إنه أسكنهم فسيح قصوره، وأغدق عليهم كثيراً من النعم، فرأى علماء الإغريق فى مصر وطناً ثانياً لهم.

وليس من شك فى أن سوطر فى تأسيسه للأكاديمية كان متأثراً بالأكاديميات اليونانية، فأكاديمية الإسكندرية من حيث مبناها وحدائقها وقاعاتها كانت تشابه أكاديميات أثينا. وكما استعان سوطر بخبرة ديمتريوس فى تأسيسه للمكتبة، كذلك استعان به أيضاً فى تأسيسه للأكاديمية، وقد جرت مراسلات بين سوطر وبين ثيوفراسطس، الذى كان مديراً للسيوم بعد أرسططاليس بشأن تأسيس الأكاديمية. غير أن «متر» لايعتقد أن اللسيوم كان مثالاً احتذاه سوطر فى تأسيسه للأكاديمية، فهو يجزم بأن اللسيوم كان مدرسة لتعليم العلوم الفلسفية فحسب، على العكس من الأكاديمية التى كان يعرض فيها العلماء لمختلف العلوم وشتى الفنون، وهو يرى أن التشابه بين الاثنين تشابه شكلى فقط من حيث البناء والحدائق وغير ذلك من مظاهر شكلية.

على أن كل ذلك لايمنعنا من أن نقول إن اللسيوم قد أثر فى تأسيس الأكاديمية تأثيراً كبيراً. ولما كان تأسيس المكتبة قد سبق تأسيس الأكاديمية، فيمكننا أن نقول إن سوطر أسس الأكاديمية بين عامى (٢٩٠ ـ ٢٨٤ ق.م)، وحقيقة كانت هذه الفترة من حكمه فترة سلام ورخاء واستقرار، أثرت فيها البلاد وبنى فيها سوطر القصور وشيد الأكاديمية وجمع حوله

العلماء والأدباء. كما كانت الأكاديمية منتدى للعلماء، يجتمعون فيه للبحث والمناظرة خدمة للعلم، فهى لم تكن جامعة كالجامعات والأكاديميات الحديثة، كل شئ فيها يسير وفق خطط موضوعة، بل كان العلماء أحراراً فى بحوثهم. وقد كفل لهم الملوك الاستقرار والحرية فوقفوا عليهم الأموال وأسكنوهم فى قصورهم. ولم تكن الأكاديمية فى أول أمرها معهداً للتعليم، وإن حاضر العلماء فى العهد الرومانى فى العلوم المختلفة، بل كانت ندوة للعلم والبحث المطلق دون قيد أو شرط.

عرض استرابون للأكاديمية فذكر أنها كانت جزءاً من القصور الملكية بالقرب من الميناء، وكان بها بهو عريض وقاعة متسعة حيث كان الأعضاء يتناولون بها الطعام سوياً. وكانت الأشجار الباسقة تحيط بالطرقات الفسيحة، حيث كان العلماء يجتمعون بها ذرافات ووحداناً؛ إما للمساجلة والمناظرة أو للخلوة والانفراد ليشبع كل فنه وعلمه.

وقد اختلف المؤرخون فيما إذا كان العلماء قد اتخذوا من الأكاديمية مسكناً لهم، أم أنهم اكتفوا بتناول الطعام سوياً هنالك، على أنه لايبعد أن العلماء كانوا يقطنون فى منازل قريبة من الأكاديمية، فقد ذكر مارسيلينوس من مؤرخى القرن الرابع الميلادى أن حى البروكيوم كان مقر العلماء. وكان يتصل بالأكاديمية مرصد وحديقة للحيوان، يقوم الأعضاء فيها بتجاربهم فى التاريخ الطبيعى. وقد وقف الملوك على هؤلاء العلماء الأموال الطائلة، على أن قياصرة الرومان كثيراً ماكانوا يعينون بالأكاديمية بعض المقربين إليهم، ولو لم يكن لهؤلاء صفة علمية تؤهلهم لذلك.

ولايمكننا التأكد من عدد أعضاء الأكاديمية، غير أنه من روايات ترجمة العهد القديم التى تقول إن فيلادلف جمع ٧٢ عالماً، وعهد إليهم بالترجمة. ويمكننا أن نقول إن حوالى ١٠٠ عالم كانوا يشتغلون بالأكاديمية. وكان هؤلاء يكثرون الجدل فى الأمور النحوية والفقهية، وكان الملوك ـ فى كثير من الأحيان ـ يشتركون معهم فى محاوراتهم، ومن هذه المحاورات والمساجلات نشأت المدارس المختلفة فى النحو والفقه والنقد العلمى، وبمرور الزمن تحولت الأكاديمية إلى مكان للدراسة والتعليم، وأخذ العلماء يلقون محاضراتهم فى التاريخ والرياضيات والطب والنحو وغير ذلك. وقد أصبح تقليداً وعرفاً أن يختار من بين أعضاء الأكاديمية من يقوم بتربية الأمراء كما نعلم من أمر أسطراطون وزينودوتس وقيامهما بتربية أولاد بطليموس الأول. ولقد كان البطالسة وقياصرة الرومان يختارون من بين العلماء رئيساً

لإدارة الأكاديمية. ولقبه استرابون بالكاهن. وقد دار الجدل حول وظيفة هذا الرئيس ولأى معبود كان هو كاهناً، فمنهم من قال إنه كان كاهنا للمعبودة إيزيس، ومنهم من ذكر آلهة يونانية. على أن سيمون يرى أن فى تعيين كاهن لرئاسة الأكاديمية غرضاً سياسياً. ولأول مرة فى التاريخ نرى رجلاً من رجال الدين يشرف على جماعة تقوم على دراسة الفلسفة، ولايبعد أن الملوك منذ البداية أرادوا أن يضعوا قيداً للفكر حتى يضمنوا الاستقرار وعدم الاضطراب. ولايبعد أيضاً أن الملوك أرادوا أن يضمنوا رضا الشعب على هذه المؤسسة بإسناد رئاستها إلى أحد رجال الدين. على أن الأمر الذى لاشك فيه أن الأكاديمية قد حافظت على التراث اليونانى، ولولاها لعفا كثير من ذلك التراث وضاع.

الفصل الخامس :

٢ ـ المكتبة والأكاديمية في عهد بطليموس الثاني ٢٨٥ ـ ٢٤٧ ق.م

■ بلغت عظمة البطالسة أوجهها فى عهد بطليموس الثانى، فقد بلغ سكان مصر مايقرب من سبعة ملايين نسمة، وامتدت الحدود شرقاً إلى سوريا والجزء الجنوبى من آسيا الصغرى وغرباً إلى برقة وجنوباً إلى بلاد الحبشة. وقد نشأ فيلادلف منذ صغره محوطاً بالعلماء والأدباء، فقد رباه الشاعر فيليطاس والفيلسوف اسطراطون، ودرس هو نفسه علم النبات والعلوم الطبيعية، كما أرسل إلى جهات الأرض المختلفة الرحالين والعلماء ليجلبوا له الحيوان، وكما أخبرنا ديودور الصقلى حفظت هذه الحيوانات بالقرب من الأكاديمية، ليتمكن العلماء من تدوين مشاهداتهم والقيام ببحوثهم العملية. وقد كان غرامه بصيد الفيلة لا حد له، فأرسل ساطيروس إلى سواحل البحر الأحمر لذلك الغرض. وحدثنا استرابون أنه أرسل ديونيسيوس إلى بلاد الهند ليكتب له التقارير عن حالة تلك البلاد، وأرسل أرسطون إلى بلاد العرب ليكشف له تلك البقاع. كما أنه طلب من مانيثون الكاهن المصرى أن يضع تاريخاً لمصر باللغة اليونانية، ثم كلف فى أثينا وردوس أن يرسلوا إلى الإسكندرية مولفات أشهر الكتاب.

وقد ذكر بعض المؤرخين أن فيلادلف اشترى مكتبة أرسطاليس غير أن استرابون يروى روايتها فيقول: إن هذه المكتبة بعد موت أرسطاليس وثيوفراسطس انتقلت إلى نيليوس، الذى أخفاها خشية أن يستولى عليه ملوك برجامو، ثم إنها بيعت إلى أبيليقون ثم انتقلت بعد ذلك إلى روما. وليس ببعيد أن يكون بطليموس الثانى قد اشترى جزءاً منها، كما قد يكون من المحتمل أنه قد تمكن من الحصول على نسخ من أشهر مؤلفات أرسطاليس، إذ لو كان فيفلادلف قد حصل على مكتبة أرسطاليس كاملة، كما يزعم بعض المؤرخين، لما رأينا كثيرين من الملوك فيما بعد يدفعون أموالاً طائلة للحصول على المخطوطات الأصلية من هذه المؤلفات. وقد ذكر «كلپل» أن كتب المكتبة قد زادت زيادة كبيرة فى عهد فيلادلف حتى إنه اضطر عام (٢٥٠ق.م) أن يؤسس مكتبة ثانية فى معبد السرابيوم إلا أن العالم الفرنسى

«متر» لايوافقه على ذلك، ويذهب مع الرأى القائل إن مكتبة السرابيوم أنشئت فى عهد بطليموس السابع (١٤٥ ـ ١١٦ق.م) وأغلب الظن أنها أنشئت فى عهد فيلادلف، لأننا نرى أن الأكاديمية والحركة العلمية بلغتا ذروتيهما فى عهده، بينما نلمس التدهور والاضمحلال فى العهود التالية.

وقد كان شاعر البلاط فى عهده ثيوقريطس، الذى لانعلم الشئ الكثير عن حياته. وقد ولد فى سيراكوز بصقلية حوالى (٣١٥ق.م) ثم تلقن فن الشعر على فيليطاس ونزح إلى الإسكندرية حوالى عام (٢٧٣ق.م). ولاندرى هل كان ذلك عن دعوة فيلادلف إياه إلى بلاطه، أم أنه أتى إلى الإسكندرية طلباً للمال والصيت؛ حيث كان بها إذ ذاك جالية صقلية كبيرة. وكان ثيوقريطس شاعر الطبيعة الفذ، فقد ترك لنا شعراً خالداً مجده علماء الأكاديمية، ولكنه فى أواخر أيامه رأى أن يعود إلى وطنه سيراكوز فعاد إليها بعد أن خلف وراءه صيتاً ذائعاً ومجداً أثيلاً ولا يقل عن ثيوقريطس مكانة الشاعر أراطوس الذى كان عضواً برابطة بلياءود، التى كانت رابطة للشعراء، تضم منهم ثيوقريطس وقليماقوس وأراطوس ونيقاندر وأبولونيوس وفيليقوس. ونحن فى شك فيما إذا كان أراطوس قد شغل وظيفة أمين للمكتبة فى أيام فيلادلف. ويجوز أنه اشترك فى العمل مع أحد الأمناء، ولانعلم لماذا غادر بلاط ملك مصر إلى ملك مقدونيا، الذى كان منافساً لبطليموس الثانى فى تشجيع العلم والعلماء. وقد اشتغل زمناً طويلاً فى نشر الإلياذة والأودسا، وانتفع كثيراً بمخطوطات المكتبة، وتعتبر أمتع آثاره الأدبية. وقد نظم أوفيد وشيشرون كثيراً من أشعاره شعراً لاتينياً.

على أن عصر فيلادلف يتيه فخراً على العصور الأخرى بالعالم الشاعر قليماقوس، الذى كان عضواً برابطة بلياءود. وقد درس فى أثينا مع أراطوس وبدأ حياته معلماً فى ضاحية «اليوزيس»، وعرف فيلادلف علمه وفضله فقربه إليه. ولايرى «متر» أنه شغل وظيفة أمين للمكتبة فى عهد فيلادلف، خلافاً لما هو معروف لدى معظم المؤرخين، فهو يستبعد أن يقوم قليماقوس بالتدريس ثم هو يؤلف هذه المؤلفات الضخمة، التى حددها بعضهم بثمانين مولفاً والبعض بثمانمائة والبعض بثمانمائة ألف، ثم هو يقوم فى الوقت نفسه بإدارة المكتبة. والواقع أن قليماقوس كتب فى معظم معارف عصره، واعترف له معاصروه بنبوغه فى الشعر التراجيدى كما قدره أيضاً شعراء الرومان أمثال أوفيد وكونتليان، فكتب عن الرياح وعن أصل المدن والجزائر، وكتب عن الطيور والأسماك ولكن أهم مايعنينا من مؤلفاته هو فهرسته العام الذى وضعه فى ١٢٠ مجلداً. فكان نواة لتاريخ عام للآداب اليونانية. وهو يعد بحق

أول فهرست منظم وضع في التاريخ، وقد سجل فيه أسماء المؤلفين المعروفين في جميع فروع الأدب، وجعل تقسيمه وتصنيفه وفقاً لنوع المؤلف وشهرته كالتراجيديين والكوميديين والمشرعين وغير ذلك. ولاشك أنه كان أداة مفيدة لعلماء الأكاديمية الذين أخذوا يزيدون عليه على مر العصور، وقد زاد عليه أحد تلاميذه أرسطفانيس البيزنطى، وكان قليماقوس فى كثير من الأحيان يعطى حكمه على قيمة الكتاب وعلى مؤلفه الحقيقى، ولكن لسوء الحظ أنّا فقدنا هذا الفهرست، مع مافقدنا من الكتب حينما حرقت المكتبة أيام قيصر، وقد ضاع أيضاً مؤلفه الذى وضعه عن الأكاديمية وتاريخها، ففقدنا بذلك أصدق مصدر على المكتبة والأكاديمية.

وقد ذكر لنا قليماقوس بأن عدد لفائف البردى بمكتبة السرابيوم بلغ فى عهده ٤٢٨٠٠ لفافة، وأن عدد اللفائف المنوعة فى المكتبة الكبرى بلغ ٤٠٠٠٠٠ لفافة والمفردة ٩٠٠٠٠ لفافة. والمفهوم أن اللفافة المفردة هى ماضمت مصنفاً واحداً، لمؤلف واحد وعلى العكس منها اللفافة المنوعة.

وقد سطع نجم أحد تلاميذه أبولونيوس الرودسى، الذى عاصر فيلادلف وبطليموس الثالث، وقامت بين الأستاذ وتلميذه مشاحنات اضطر من أجلها أبولونيوس أن ينزح إلى رودس، ومن ثم كنى بالرودسى. ونحن فى شك فيما إذا كان قد أقام برودس إلى أن مات، أم أنه بعد موت أستاذه عاد إلى الإسكندرية وأسندت إليه أمانة المكتبة، وتعد أهم أشعاره. وقد ذكر بارثى أنه شغل وظيفة أمين المكتبة عقب أراطوثينس، وقال بهذا الرأى أيضاً «متر» استناداً إلى ماذكره سويداس من أن إدارة المكتبة أسندت إليه عقب عودته من رودس. ولكن الأوراق البردية التى عثر عليها أخيراً كشفت عن حقيقة طالما خفيت على المؤرخين وهى أن أمينين للمكتبة أحدهما أبولونيوس الرودسى وثانيهما أبولونيوس الإسكندرى قد أشرفا على إدارتها. أولهما قبل اراطوثينس وثانيهما بعده. وقد أدى ذلك إلى لبس بين المؤرخين فى أمر أبولونيوس، وإلى الخطأ الذى وقع فيه كل من «بارثى» و«متر» وسنفصل ذلك فيما بعد.

وقد أدى فيلادلف خدمة جليلة لتاريخ مصر بأن عهد إلى مانيتون الكاهن المصرى أن يضع تاريخاً لمصر، فاعتمد على «ارشيف» هليوبوليس، ومابه من وثائق تاريخية فى تأليف مصنفه الذى عالج فيه تاريخ مصر إلى عهد الإسكندر الأكبر. ولكن لسوء الحظ ضاع هذا المؤلف القيم. ولكن يوسفوس المولود حوالى (٣٧م) ويوزيب (٢٦٥ - ٣٤٠م) قد حفظا لنا كثيراً من كتاباته، وهو يخالف كثيراً من المؤرخين اليهود والمسيحيين فى توقيته للحوادث إذا كانت آراؤه الدينية تخالف آراء هؤلاء مخالفة تامة، ومن أشهر فلاسفة عصر فيلادلف اسطراطون

الذى حدثنا سويداس عنه أنه كان مربياً للملك. وقد خلف ثيوفراسطس في اللسيوم، واستمر يعمل بها مدة ثمانية عشر عاماً إلى وقت وفاته. ولابد أنه قدم مصر قبل أن يعهد إليه بهذا المركز في أثينا. واسطراطون فيلسوف من فلاسفة الطبيعة الذين رأوا فيها كل قوة محركة للعالم. ويرى كثير من الفلاسفة المحدثين أنه نادى بكثير من الآراء، التى نادى بها سبينوزا فيما بعد.

ولقد كان للنهضة الفكرية فى عهد فيلادلف أثر كبير فى نشاط المكتبة، فاكتظت مخازنها وازداد رصيدها. ومن سوء الحظ أن معظم ماكتب عن المكتبة والأكاديمية أيام فيلادلف عفا واندرس، فنحن مضطرون إلى الاعتماد على مؤرخين متأخرين أمثال الفيلسوف الرومانى سنكا (القرن الأول الميلادى)، وكذلك المؤرخ يوسفوس (القرن الأول الميلادى)، ويوزيب (٣٦٥ - ٣٤٠م)، والمؤرخ أميان مارسيلان من مؤرخى القرن الرابع الميلادى. وهؤلاء اختلفوا فيما بينهم حول عدد الكتب التى كانت بالمكتبة أيام بطليموس فيلادلف، وأيام حريقها وقت تدمير الأسطول على أيدى قيصر. وليس من شك فى أن الأعداد التى ذكرها هولاء المؤرخين هى تقريبية؛ فهى تتراوح بين ٥٤٠٠٠ مجلد (أو لفافة من لفائف البردى) وبين ٧٠٠٠٠٠ مجلد، ونحن نلاحظ خلافاً بيناً فقد ذكر يوزيب ١٠٠٠٠٠ مجلد، وذكر يوسفوس ٢٠٠٠٠٠ مجلد وذكر سنكا ٤٠٠٠٠٠ مجلد وذكر أميان مارسيلان ٧٠٠٠٠٠ مجلد، على أننا نلاحظ أن أميان مارسيلان قد خلط بين مكتبة البروكيوم وبين مكتبة السرابيوم فذكر أن ماكان بهذه المكتبة الأخيرة هو ٧٠٠٠٠٠ مجلد، وأنها حرقت وقت حرق الأسطول على يد قيصر، وسنفسر ذلك فيما بعد، مع أننا نعلم أن هذه المكتبة كانت بعيدة جداً عن الميناء فحى راقوده الوطنى كان بعيداً عن متناول يوليوس قيصر، ويعتقد «متر» أنه كان بمكتبة البروكيوم التى كانت الأم ٤٠٠٠٠٠ مجلد، حرقت كلها أيام يوليوس قيصر، وأن مكتبة السرابيوم وهى المكتبة الفرعية كانت تحوى ٣٠٠٠٠٠ مجلد، ولم يصب هذه أى ضرر من جراء الحريق، وقد سبق أن ذكرنا ماقدره قليماقوس من أن عدد اللفائف بمكتبة السرابيوم بلغ ٤٢٧٠٠ لفافة، وأن عدد اللفائف المنوعة فى المكتبة الكبرى بلغ ٤٠٠٠٠٠، واللفائف المفردة بلغ ٩٠٠٠٠ لفافة.

على أنه يجب أن نلاحظ أن هذا العدد الضخم الذى حرق (٤٠٠٠٠٠) يمكن أن يقابله الآن حوالى ١٥٠٠٠٠ مجلدا بل أقل من ذلك؛ فأشعار هومر مثلاً التى يمكن أن تطبع الآن فى مجلدين صغيرين كان يحتاج لكتابتها إلى مايقرب من أربعين لفافة من لفائف البردى؛ أى أنه

يصح أن يقال أن النسبة هى ٤٠ : ٢ ؛ فالكتابة قد تقل بالتدريج حينما بدئ باستعمال الرق بعد البردى، فالرق يكتب عليه من ناحيتين بخلاف البردى، والحروف على الرق أقل اتساعاً منها على البردى.

الفصل السادس :

٣ - المكتبة والأكاديمية في عهد بطليموس الثالث ٢٤٧ - ٢٢١ ق.م

■ يعد عصر بطليموس الثالث مفترق الطرق، ففيه مظاهر عظمة العهد السابق وجراثيم العهد المقبل عهد الاضمحلال والانهيار. على أننا نلاحظ أن الثروة المصرية نمت وازدهرت؛ بسبب العلاقات التجارية التى كانت تربط مصر ببلاد العرب والهند. وكانت الإسكندرية لاتزال تسمى عروس الشرق وأم المدن، وكان حول بطليموس الثالث من العلماء والأدباء من أسسوا مجد والده من قبل أمثال أرسطفانيس البيزنطى وأراطوثينس وأبولونيوس، وقد امتدت الفتوحات إلى أواسط آسيا، وتغلغلت فى أواسط أفريقيا حتى بلاد الحبشة، وقد جاب العلماء والرحالة هذه البقاع دارسين منقبين، فأرسل سمياس إلى سواحل البحر الأحمر ليجمع له معلومات عن تلك الأصقاع.

على أن أكبر شخصية ظهرت فى عصر بطليموس الثالث، هو أمين المكتبة اراطوثينس الذى ولد فى برقة حوالى عام (٢٧٦ق.م)، ودرس على قليماقوس ثم رحل إلى بلاد اليونان ودرس فى أثينا العلوم الفلسفية، وسمع لمحاضرات أرسطون. ولما ذاع صيته هنالك، استدعاه بطليموس الثالث حوالى عام (٢٣٥ق.م)، وعهد إليه بإدارة المكتبة، وهو يعد بحق «أفلاطون الثانى». وكان يسمى نفسه «صديق العلم». وقد أكد لنا «بلينى» أنه نبغ فى كل معارف البشر فكتب فى النحو والهندسة والفلسفة والجغرافيا والرياضة، وألف عن حياة الإسكندر الأكبر، ورسم خريطة للعالم فى عصره، وكتب عن الكوميديا القديمة، وحبذ نظريات أفلاطون فى الفلسفة، وألف فى الفلك والميقات، وقيل إنه أضاف ونقح فيما كتب مانيتون عن تاريخه مصر القديم وقد فقد بصره فى أواخر أيامه وتوفى وهو فى الثمانين من عمره.

ويذكر لنا ڤترڤيوس بليو (٨٨ - ٢٦ق.م) أن إدارة المكتبة أسندت إلى عالم ضليع، هو أرسطفانيس البيزنطى الذى كثر الجدل والتناقض حول ماوصلنا عنه. وهذا مما حدا بالعالم

الألمانى «كلپل» إلى التحفظ فى إبداء رأى عن الزمن الذى تولى فيه إدارة المكتبة، وذلك لعدم تأكده من دقة ماوصلنا عنه من أخبار. على أننا نعلم أن أرسطفانيس هذا كان تلميذاً لزينودوتس وقليماقوس، وكان يحضر المطارحات الشعرية التى كان يقيمها كل من فيلادلف وأريجنيوس. وقد أخذ فى تنقيح ماقام به زنيدوتس من نقد لأشعار هومر، ثم أضاف الشئ الكثير لفهرست الآداب اليونانية الذى وضعه أستاذه قليماقوس، وقد قيل إنه عين أميناً للمكتبة حوالى عام (١٩٥ق.م)، وكان عمره إذ ذاك ثنتين وستين سنة. ولصعوبات نشأت بشأن وظيفته، حاول أن يلجأ إلى أومنس الثانى (١٩٧ - ١٥٩ق.م) ولكن قبض عليه وبعد وقت أطلق سراحه، ثم توفى حوالى عام ١٨٠ق.م. أما عن أمناء المكتبة وتاريخ تعيينهم فقد كشفت لنا الأوراق البردية التى عثر عليها حديثاً القناع عن أزمة توليتهم، وقضت على وجهات النظر المختلفة، التى كانت قائمة بين العلماء أمثال بارثى وكلپل؛ فقد ثبت أن زينودوتس كان أول أمين للمكتبة ثم خلفه أبولونيوس الرودسى ثم أرطوثينس ثم أبولونيوس الإسكندرى. وقد صحح هذا وجهة نظر المؤرخين المتقدمين، الذين ظنوا لتشابه الاسمين أن أبولونيوس الرودسى وأبولونيوس الإسكندرى شخص واحد. ومن ثم فرضوا الفروض العدة، التى لم تشف غليلنا ولم تهدنا السبيل.

وخلف أبولونيوس الإسكندرى أرسطفانيس البيزنطى ثم ارستارقس. ويتضح من ذلك أن قليماقوس لم يكن أميناً للمكتبة كما ذكرنا من قبل. ونحن نلاحظ بصدد الأمناء أنه كان يناط دائماً بأمين المكتبة أمر تربية أولاد الملك؛ فقد أشرف زينودوتس على تربية أولاد بطليموس الأول، وكان أبولونيوس الرودوسى مربياً لبطليموس الثالث، وأراطوثينس مربياً لبطليموس الرابع وأرستارقس مربياً لبطليموس الخامس.

الفصل السابع :

٤ ـ المكتبة والأكاديمية
فى الفترة من ٢٢١ ـ ١١٦ ق.م

■ بموت بطليموس الثالث سارت مصر بخطى سريعة نحو الانحلال والاضمحلال. وابتدأت حقبة جديدة من تاريخ البطالسة، كانت مقدمة لانقراض ملكهم وضياع مجدهم. وقد حكم مصر في غضون تلك الحقبة (٢٢١ - ١١٦ق.م) أربعة من ملوك البطالسة: بطليموس الرابع (٢٣١ - ٢٠٣ ق.م)، وبطليموس الخامس (٢٠٣ - ١٨١ ق.م)، وبطليموس السادس (١٨١ - ١٤٥ ق.م)، وبطليموس السابع (١٤٥ - ١١٦ ق.م)، انحدرت مصر في عهودهم من سيئ إلى أسوأ، فدب الوهن وساد الشقاق البيت الحاكم، فعدا الابن على أبيه، وثار الأخ على أخيه، وأصبحت الثروة التي كانت في أيديهم عاملاً من عوامل الرقي العلمي والخلقي معولاً للهدم وأداة للتخريب. والتف حول الحكام المنافقون والمخادعون من الموظفين، وأصبح للنساء حظ كبير في إدارة الحكم، وأصبحت الإسكندرية ميداناً للثورات من حين إلى حين، وقوى الشعور القومي عند المصريين، وانعكست هذه الصورة على علماء الأكاديمية وأدبائها، فبدلاً من أن ينصرفوا إلى الإنتاج العلمي الحقيقي، أصبحوا يخادعون ويمالقون، منصرفين عن عملهم الحقيقي متفرغين لإرضاء أهواء ملوكهم. وقد بدأ تدخل الرومان في أمر مصر يظهر واضحاً؛ إذ أدركوا أن مايجرى في مصر يمس سلطانهم، فأخذوا ينصبون الشباك ينصرون فريقاً على فريق لكي يزيدوا من عوامل الفساد والخلل في البلاد. وقد قدر لهذه السياسة أن تنجح أخيراً ففقد المصريون استقلالهم وضاعت أملاكهم.

ظهر أثر هذا التدهور أيام بطليموس الرابع، الذي كان متلافاً ميالاً للهو والمرح، وقد ترك أمر إدارة البلاد إلى وزيره سوزبيوس وانصاع لأخت وزيره أغاثوكلس، ولم يطلق عليه لقب إلا رجال حاشيته ومنافقوه، أما الشعب فقد كان حانقاً عليه كارهاً له متبرماً بحكمه. على أننا لاننسى أنه كان له فضل عظيم في صد جيوش أنطيوخوس الثالث في رافيا **Raphia** عام ٢١٧

ق.م، وليس من شك فى أن نشاط المكتبة والأكاديمية لم يقف دفعة واحدة؛ فقد دعا بطليموس الرابع كثيرين من علماء اليونان إلى الإسكندرية، وشيد معبداً خاصاً لهومر، وعاش فى عهده من العلماء من تفرغ للدرس والتحصيل. وقد أسندت إدارة المكتبة إلى العالم أرسطونيم، الذى كان شاعراً كوميدياً فذاً، على أنه أراد فى أواخر أيامه أن يغادر الإسكندرية وبلاط البطالسة إلى منافسيهم ملوك برجامون ولانعلم بالضبط لماذا أراد ذلك: أطمعاً فى مال وفير وعده به ملك برجامون أم تبرماً بسوء حال بطليموس الرابع. ولما وصل ذلك إلى علم بطليموس قبض عليه وأودعه السجن، ولكنه عفا عنه أخيراً، ففر إلى ملك برجامون حيث مات وهو فى السابعة والسبعين من عمره، وهو يعد بحق آخر شاعر كوميدى أنجبته الإسكندرية وأكاديميتها.

وفى هذه الحقبة عاش الفلكى هبارقس، الذى قام بأرصاده الفلكية فى رودس قبل أن يأتى مصر. وقد كتب عن أبعاد الشمس والقمر، وحاول أن يعين هذه الأبعاد بخطوط الطول والعرض، على أنه من الأسف الشديد أن مؤلفاته لم تصلنا. وقد حاول فى كثير من كتبه أن يصحح من أخطاء أراطوثينس، ويظهر أن هذه كانت سنة رجال الأكاديمية ليخطوا بالعلم إلى الأمام، فكما نقح هبارقس كثيراً من آراء أراطوثينس، كذلك نقح استرابون كثيراً من آراء هبارقس.

وقد عاش إذ ذاك الفيلسوف سفيروس، الذى كان كثيراً مايدخل فى مناقشات فلسفية مع بطليموس الرابع. وقد اضطر فى عهد بطليموس السابع إلى مغادرة الإسكندرية إلى أسبرطة. وقد كتب فى الثراء والمجد وفى الحظ وتقلبات الأهواء. وكم كنا نود لو استمع لنصائحه وفلسفته بيت البطالسة؛ حتى يبقوا على مجدهم ويصلحوا من حظهم العاثر.

ولم تكن مصر بأحسن حالاً فى عهد بطليموس الخامس (٢٠٣ - ١٨١ ق.م)، الذى تولى العرش ولما يبلغ الخامسة من العمر، فكانت مصر موطناً للثورات والاضطرابات، وأخذ الأوصياء يكيد بعضهم لبعض. وقد أدى ذلك إلى تدخل الرومان الجرئ فى شئون مصر؛ بحجة المحافظة على الأمن وتهدئة الخواطر فى البلاد؛ إذ عهد السيناتو إلى لبيدوس بالإشراف على أمور مصر. ولكن لما لم يكن الوقت المناسب للاستيلاء على البلاد قد حان بعد، عهد لبيدوس إلى الفيلسوف ارسطومين بإدارة شئون البلاد، ولكن ذلك لم يخفف من حالة

الاضطراب الداخلى الذى ظهر أثره فى السياسة الخارجية للبلاد ، فقد هزمت جيوش البطالسة هزيمة منكرة ، وضاعت فلسطين من حكمهم ، ونضب بذلك معين ثروة مصر .

ولاشك فى أن هذا الحال وسوء الحياة الاقتصادية أدى إلى تدهور الأكاديمية وإهمال المكتبة . وبموت بطليموس الخامس زادت الفوضى وعمت الدسائس ، وقد قامت كليوباترا مدة وصية على بطليموس السادس (١٨١ - ١٤٥ ق.م) ، وقام الشقاق بين البطالسة ، وقسمت أملاك مصر وغزا انطيوخوس الرابع البلاد . ولكن عين روما لم تنم فلم يستطع انطيوخوس أن يثبت قدمه فى البلاد .

ومن أشهر علماء هذا العصر ارستارقس (٢٢٠ - ١٤٣ ق.م) ، اللغوى الفذ الذى درس على ارسطفانيس البيزنطى ، وقام بتربية أولاد بطليموس الرابع ، وكان له تلاميذ عديدون يعملون وفق تعاليمه اللغوية . وقد أسندت إليه إدارة المكتبة فى عهد بطليموس السادس فقام على نشر مؤلفات بندروسفوكليس واسكليوس . ولكن عمله الخالد هو تعليقاته على أشعار هومر ، فقد رتب الإلياذة والأودسيا فى ٢٤ قسماً وقيل إنه ترك مايزيد على ٨٠٠ مؤلف . واضطر ارستارقس فى أوائل حكم بطليموس السابع أن يغادر مصر إلى قبرص حيث توفى وهو فى الثانية والسبعين من عمره .

وعهد بطليموس السابع (١٤٥ - ١١٦ ق.م) عهد اضطرابات وانقسامات بين الطامعين فى الحكم من بيت البطالسة . وزاد الحال سوءاً ماكان عليه بطليموس السابع من وحشية وقسوة ؛ فقد بدأ عهده باضطهاد كثير من العلماء ، الذين كانوا موالين لبطليموس السادس ، ولذلك هجر كثير منهم الإسكندرية ، كما هرعت جموع من أعضاء الأكاديمية إلى بلاد اليونان لينشروا علومهم هنالك ؛ فاضطر بطليموس إلى الاستعانة بنفر من الأجانب ، ليس لهم حظ كبير من الثقافة . وقد بين المؤرخ اثنيوس كيف تعلم اليونانيون على أيدى علماء الإسكندرية ، بعدما أقفرت بلادهم من العلم عقب الحروب التى شغلت البلاد زمناً طويلاً .

وقد اعتاد بعض المؤرخين أن ينسب إلى بطليموس السابع ، بالرغم من موقفه حيال العلماء - ميولاً أدبية ، ويرون فيه - على الرغم من قسوته ووحشيته - مشجعاً للمكتبة ، ولاغرابة فهو تلميذ من تلامذة ارستارقس ، واشتهر بكتاباته وتعليقاته على هومر . وقد أصدر أوامر مشددة إلى التجار بأن يحصلوا له على المخطوطات الأصلية لمؤلفات علماء اليونان ، مهما كلفهم ذلك من نصب .

وقد اقترض من معاهد أثينا المخطوطات الأصلية لأسكليوس ويوربيديس وسفوكليس، على أن يأخذ منهم نسخاً أخرى، ولكنه كثيراً ماكان يرسل إلى هذه المعاهد النسخ المنقولة محتفظاً لنفسه بالأصول الخطية. وقد اشتدت المنافسة بينه وبين ملوك برجامون فى اقتناء هذه المخطوطات. ونحن نعلم أنه منذ أن أسس ملك برجامون أومنس الثانى مكتبة عظيمة حوالى عام ١٧٠ ق.م؛ والبطالسة وملوك برجامون فرسارهان يتبارياان فى اقتناء نفيس الكتب. وأخيراً أصدر بطليموس السابع أمره بمنع تصدير البردى إلى برجامون ليفوز هو بإحراز قصب السبق فى مضمار العلوم والفنون. وقد كان لهذا أثره على حركة العلوم والمعارف بها، ولكن الحاجة تفتق الحيلة كما يقولون، فاستعاض ملوك برجامون عن البردى باستعمال الرق الذى انتشر استعماله فى العالم القديم. ولاشك أنه أكثر صلابة وتحملاً من البردى الذى يتعرض بسرعة للتلف والعطب.

وقد كان من جراء هذا التسابق بين الأمتين فى اقتناء الكتب أن أخذ المدلسون من التجار يدسون بين الكتب كتباً دخيلة، ينسبونها إلى مشاهير العلماء علماً منهم بأن الكل سيسارع إلى اقتنائها. ولكنه يظهر أن بطليموس السابع كان على علم تام بما يقوم به أمثال هؤلاء التجار، فكان يطيل التحقيق ويدقق النظر فيما يعرض فيه من المخطوطات. وقد عزا العالم الفرنسى «متر» إلى بطليموس السابع إنشاء مكتبة السرابيوم، تلك المكتبة الفرعية التى كانت الأكاديمية تعتبر بالنسبة لها الأم والأصل؛ فهو يقول إنه لما ضاقت هذه الأخيرة عن أن تسع كل الكتب بادر بطليموس السابع، بالإضافة إلى تأسيس مكتبة السرابيوم التى أخذت تنمو حتى بلغ رصيدها وقت حريق مكتبة الأكاديمية عند حريق الأسطول على أيدى يوليوس قيصر مايقدر بـ ٢٠٠,٠٠٠ مجلد. ويرى أيضاً أنه يجوز أن بطليموس السابع قد أودع كثيراً من كتب مكتبة الأكاديمية فى أبنية أسسها هو، ولكن العالم الألمانى «كلپل» لايشاركه فى هذا الرأى، بل يعتقد أن مكتبة السرابيوم، استناداً إلى ماذكره يوزيب وماذكره المؤرخ والرحالة الفرنسى (١٦٣٢ - ١٧٠٦م) فى كتابه «تاريخ البطالسة»، أسست عام ٢٥٠ق.م فهو يعارض «متر» فى رأيه ويقول عنه أنه لايستند على أية حجة تاريخية يمكن الاعتماد عليها. وقد سبق أن نوهنا عما ذكره قليماقوس عن رصيد مكتبة السرابيوم أيام بطليموس فيلادلف. كل ذلك يجعلنا نميل إلى الرأى القائل بأن مكتبة السرابيوم أسست فى عهد فيلادلف، لا فى عهد بطليموس السابع.

الفصل الثامن :

٥ ـ المكتبة والأكاديمية
فى أواخر عهد البطالسة
١١٦ ـ ٣٠ ق.م

■ توفى بطليموس السابع عام ١١٦ ق.م بعد أن حكم ثماني وعشرين سنة، وقد دخلت مصر بعد ذلك فى طور الانحلال والانهيار. وتمتاز تلك الحقبة بالنزاع المستمر بين أفراد البيت المالك؛ وازدياد قوة روما وبطشها، ثم تدخلها الفعلى فى الشئون المصرية؛ مما أدى إلى احتكام البطالسة إلى الرومان، وبذل العطاء لهم لكى ينالوا حمايتهم وبذلك وضعت السياسة، التى قضت فى النهاية على ملكهم واستقلالهم. ولقد صرف البطالسة من جراء ذلك أموالاً طائلة. فلم يبق لديهم ماينفقونه على المكتبة والأكاديمية.

ظهر الخلاف بين أولاد بطليموس السابع، وتمكن أحدهم إسكندر الأول من دس السم لأمه كليوباترا لكى يتخلص منها. وقد اشتدت الخلافات وانقسمت البلاد شيعاً وأحزاباً، وتمكن بطليموس الحادى عشر من أن يلجأ إلى روما وأشراف الرومان يستجدى منهم المعونة لكى يعيدوا له عرشه الضائع. وأخيراً أعيد له ملكه وسمى حليفاً وصديقاً للشعب الرومانى. وأهم مانلاحظه فى عهده زيارة ديودور الصقلى لمصر، وتردده على المكتبة منقباً جامعاً وثائق لتاريخه العام. وفى عام ٥١ ق.م مات بطليموس وتولى خلفاً له ابن لم يبلغ العاشرة من عمره ومعه أخته الكبرى كليوباترا، وكانت تبلغ السابعة عشرة من عمرها، وقد أوصى أن يكونا تحت إشراف روما ثم دب الخلاف بين كليوباترا وأخيها، واضطرت أن تغادر مصر إلى سوريا. وهكذا قامت حرب بين الأخ وأخته كانت المعول الهادم لبيت بطليموس. وفى أثناء ذلك كان يوليوس قيصر قد هزم بومبى فى موقعة فارساليا، وفر هذا إلى مصر حيث لقى حتفه.

أما قيصر فقد تبعه إلى مصر؛ حيث كان اخيلاس وثيودوطس يقومان بالوصاية على الملك الصغير، وكانت كليوباترا قد طردت من مصر قبل معركة فارساليا.

وصل قيصر إلى الإسكندرية فى أكتوبر عام ٤٨ ق.م حيث كانت فى اضطراب لمقتل بومبى. ولم يكن جيش قيصر ليزيد على ٣٢٠٠ رجلا، ولم يكن أسطوله ليزيد على ٣٤ سفينة حربية ولاشك أنه كان معتمداً على المجد الذى أحرزه بانتصاره على بومبى، وقد أخذ قيصر يخادع المصريين، مظهراً لهم أنه لايبغى غرضاً حربياً من مجيئه إلى مصر. وفى الحق أن نزوله بالإسكندرية كان جارحاً للكرامة المصرية وللشعور القومى؛ لذلك أخذ يشغل نفسه بزيارة الآثار كأنه سائح قادم للرياضة والمتعة. ولما تقابل مع بطليموس أظهر أنه يريد بما له من سلطة القنصد أن يسوى هذا النزاع القائم بين الأخ وأخته.

وفى أثناء ذلك كانت كليوباترا قد تمكنت من أن تتسلل إلى القصر الملكى حيث كان يقيم قيصر. وفى مظهر روائى من الأسى على المجد الزائل، قدمت شكواها لقيصر باكية مستجدية، وأخيراً نجحت فى أن تجعل منه محامياً لها وزائداً عن حياضها. وقد قرأ قيصر على بطليموس وكليوباترا وصية أبيهما، وملخصها أن عليهما بعد أن يتزوجا تبعاً لتقاليد الأسرة، أن يحكما البلاد تحت إشراف روما، ثم أكد لهما أنه سيقوم هو بدوره بتنفيذ هذه الوصية. وقد أدى موقفه هذا إلى حرب الإسكندرية، إذ قام اخيلاس وبوثنيوس بتعبئة الجيش المصرى. وقد بدأت الحرب حيث كان ينزل قيصر بالقصور الملكية التى كانت تطل على الميناء الشرقى.

كانت جيوش البطالسة تفوق جيوش قيصر عدداً، فكانت تزيد على ٢٠,٠٠٠ رجل، غير أن اخيلاس لم يفلح أول الأمر فى تحديد خطط هجومه. وقد حاول أن يحصر قوات قيصر حصراً بحرياً وبرياً بواسطة الأسطول المصرى. ولكن قيصر أدرك منذ البداءة خطر هذا الأسطول عليه. ولما لم يكن لديه قوة من الرجال لحراسته قرر أن يمنع العدو من الانتفاع به. فأشعل النار فيها على مائة وعشرين سفينة، وقد عملت ريح الجنوب على اتساع مدى هذا الحريق فأتلفت دار الصناعة وماجاورها من المبانى، وذكر بلوتارخ أن من بين هذه المبانى التى مرها الحريق مكتبة الإسكندرية العظمى.

وغريب جداً أن يقف المؤرخون دائماً فى صدد أى حريق يصيب المكتبة، سواء فى التاريخ القديم على أيدى الرومان أو فى العهد الوسيط ورواية حريقها على أيدى العرب موقف الاضطراب والغموض. فمنهم من يذكر أمر الحريق، ومنهم من يضطرب فى روايته، ومنهم

من يصـمت صـمت الموتى ولايسع البـاحث إلا الشك فى هذا وذاك، محـاولاً أن يصل إلى الحقيقة وسط هذا الاضطراب.

وقد قال بحريق المكتبة وقت حريق الأسطول عام ٤٧ ق.م المؤرخ بلوتارخ، وكذلك جليوس أحد نقاد القرن الثانى الميلادى وقد قرر المؤرخ الرومانى (٧٠ - ١٤١م) عن ليفيوس أن عدد الكتب التى حرقت بلغ ٤٠٠,٠٠٠ مجلد وتكلم أورسيوس من مؤرخى القرن الخامس الميلادى فى تاريخه العام الذى أهداه إلى سنت أغسطين عن حريق المكتبة، وذكر أن ٤٠٠,٠٠٠ مجلد حرقت.

أما امين مارسيلان أحد مؤرخى القرن الرابع الميلادى، فقد اختلط عليه الأمر، وحسب أن الحريق تناول مكتبة السرابيوم، وقال إن مايقرب من ٧٠٠,٠٠٠ مجلد قد أحرقت.

أما الشاعر الرومانى لوكانوس (٣٩ - ٦٥م) فلم يذكر شيئاً عن حريق المكتبة، وذكر أن المبانى المجاورة للبحر هى التى أصابها الحريق. ويجوز أنه تعمد إغفال أمر حريق المكتبة، إذ هو حادث سيئ لم ير فائدة من ذكره لمواطنيه. وقد قيل إن الجزء العاشر من كتابه لم يتممه هو وأنه نشر بعد موته. على أن الذى يقلل من شأن ذلك أن المؤرخ ليفيوس (٥٩ - ١٧م) الذى نقل عنه لوكاتوس عرض لحريق المكتبة.

وهناك فريق من المؤرخين صمت عن ذكر ذلك الحادث وكنا ننتظر منهم أن ينبئونا بشئ عنه أمثال استرابون وهرتيوس مؤلف كتاب حرب الإسكندرية ويوليوس قيصر وشيشرون. أما استرابون فلم تصل إلينا كل آثاره وكتابه الذى ننقل عنه كتاب جغرافى. ويجوز أنه ذكر ذلك فى أحد كتبه التاريخية التى لم تصل إلينا.

ويعتقد ستاكى أن استرابون لم يرد قصداً أن يذكر حادثاً كحريق المكتبة، وأنه استمع لنصائح والى مصر إذ ذاك جلوس الذى رجاه ألا يذكر فى تاريخه شيئاً فيه إساءة لوالد مولاه. ويجب ألا يغيب عنا أنه لم يكن من اليسير فى روما أيام أغسطس أن يكتب استرابون عن حادث فى ذكره إثارة ألم للإمبراطور.

أما قيصر فلم يشأ أن يذكر فى مؤلفاته حادثاً كان لاشك مؤلماً ومسيئاً له. وقد دار الجدل حول موقع المكتبة، فذكر «استرابون» أنها لم تكن واقعة مباشرة على الميناء، واكتفى بأن قال

إنها كانت جزءاً من القصور الملكية. وقد حدا ذلك «بارثى» إلى أن يقول بأن الكتب هى التى أحرقت، لا مبانى المكتبة. ويقول إنه من الممكن أن يكون قيصر قد نقل الكتب قرب الشاطئ وأراد إرسالها إلى روما، وفى هذه الأثناء التهمتها النيران.

ويقول «بارثى» إنه مما يعزز هذا الرأى قول المؤرخ الرومانى كاسيوس (١٥٥ - ٢٣٥م) الذى يذكر أن الكتب ومخازن الحبوب هى التى نالها التلف، على أنه مما يقلل من قيمة هذا الاستنباط انه من المستبعد أن يقوم قيصر فى مثل هذا الوقت وجيشه صغير والإسكندريون فى غاية الهرج، وهو يريد أن يظهر أمام المصريين مظهر السائح بنقل كتب المكتبة إلى الميناء لكى يرسلها إلى روما. والخلاصة أنه يمكننا أن نستنبط من أقوال المؤرخين أن مايقرب من ٤٠٠,٠٠٠ مجلد قد دمرت فى هذا الحريق.

ولهذا نرى مارك أنطوان يعوض كليوباترا عن هذه الخسارة بإهدائه إليها مايقرب من ٢٠٠,٠٠٠ مجلد من مكتبات ملوك برجامون. وهكذا تجرى المقادير فكأن ملوك برجامون الذين نافسوا البطالسة طويلاً قد جمعوا ما جمعوا من كتب لتأخذها كليوباترا فى نهاية الأمر.

إن هذه الحروب الداخلية التى شهدتها الإسكندرية كانت هادمة لثروتها، قاتلة لروح البحث التى كانت تمتاز بها الأكاديمية، وأن فى ضياع عزة البطالس، وخضوعهم لسلطان روما عاملاً مهما فى تدهور العلوم والآداب فى هذه الحقبة؛ فالمصريون والإغريق كانوا جميعاً حانقين. على أن بعض تلاميذ ارستارقس ظلوا يوالون بحوثهم اللغوية ومنه ديونيسيوس الذى قام بالتدريس بالأكاديمية، وسبق أن نوهنا أن الأكاديمية صارت معهداً للدراسة؛ وقد كان قبل ذلك يقوم بالتدريس فى روما أيام بومبى، وهو أستاذ تيرانيون الذى كان يملك مكتبة اشتملت على مايقرب من ٣٠,٠٠٠ مجلد.

وكان اهتمام كليوباترا بجغرافية البلاد وأحوالها عظيماً، فقام الرحالة برحلات إلى بلاد الهند، ولايبعد أن أغراضاً تجارية هى التى دفعته للقيام بهذه الرحلات، وكان الطبيب ديوسقوريدس من الذين خدموا كليوباترا، وقد كتب مايزيد على أربعة وعشرين مجلداً فى الطب، وقد خلط سويداس بينه وبين ديوسشوريدس آخر. عاش أيام تراجان، وأرسله بطليموس الحادى عشر إلى السينانو بروما لكى يدافع عن مصالحه ورافقه فى رحلته إلى روما سيرابيون،

وفى أثناء حروب قيصر بالإسكندرية، أرسل هذان أيضاً إلى القائد اخيلاس؛ لكى يضعا حداً للحرب وتعقد الهدنة ولكن كان جزاءهما القتل.

وليس من شك فى أن حريق المكتبة قد أضاع على العالم مؤلفات ثمينة لمؤلفين، لم تصل إلينا أسماؤهم، وضاع على الحضارة تراث مجيد لايمكن أن يعوض. ومهما يمكن من شيء فقد أخرجت الأكاديمية علماء وبحاثين، وحافظت على الحضارة اليونانية القديمة. وليس بخاف أن هؤلاء العلماء كانوا من الإغريق؛ فإن المصريين لم يعنوا كثيراً بالتراث الهيليني. حقاً لقد كتب الكاهن المصرى «مانيتون» تاريخاً لمصر باللغة اليونانية فى عهد فيلادلف، ولكن ذلك لايدل على أن المصريين اشتركوا فى نشاط الأكاديمية. وكان لليهود نصيب كبير فى الحركة الفكرية فى عهد البطالسة، فحاول ارسطبول اليهودى أن يوفق بين تعاليم اليهودية وبين الفلسفة اليونانية. على أن اليهود لم يكونوا أعضاء فى الأكاديمية وهذه ظاهرة غريبة عند البطالسة فبينما نراهم يستدعون العلماء من أنحاء الأرض جميعاً، ويغدقون عليهم الأموال، نراهم يوقفون حق العضوية فى الأكاديمية على الإغريق فقط. ويجوز أن العلماء كانوا يعدون من رجال البلاط وبطانة الملك، والظاهر أنه كان لهؤلاء العلماء تقاليد خاصة ورثوها عن أساتذتهم، فكان الفلاسفة الإغريق فى مصر يعدون أنفسهم ممثلين للمذاهب الفلسفية اليونانية القديمة يسعون لنشرها والدفاع عنها. ولكن بعضهم حاول تنقيح ما ورثه عن أساتذته... وهكذا ظلت الأكاديمية فى تقدم مستمر، وظل العلماء يوالون البحث وينشرون ماينتجونه من بحوث علمية وأدبية.

الفصل التاسع :

٦ - المكتبة والأكاديمية
من عهد أغسطس إلى آخر حكم كلوديوس
٣٠ ق.م - ٥٤ م

■ بانقراض دولة البطالسة وخضوع مصر للحكم الرومانى تبدلت الحال، فغدت البلاد عند الرومان مخزناً للغلال تمتان منه الإمبراطورية، وأصبحت الإسكندرية لاتشغل فى حيز تفكيرهم إلا ذلك المركز التجارى، الذى هيأها له موقعها الجغرافى. ولم يروا فى الأكاديمية إلا ملجأً لبعض فلاسفة الإغريق. لذلك رأينا الأباطرة الرومان يعنون بالأمن واستتبابه، وخلود الأهلين إلى الدعة والسكون. فوضعوا الأنظمة الدقيقة التى تكفل لهم ما أرادوا. على أنه لايغيب عنا أن الإغريق منذ القدم كانوا أساتذة الرومان فالكثرة من نابهى الرومان نهلوا العلم من الجامعات الإغريقية، وكبار رجال الإمبراطورية كانوا يباهون بتمكنهم من اللغة الإغريقية كتابة وحديثاً، وكانوا يدلون بضلاعتهم فى الأدب الإغريقى، الذى كان لاشك له الشأن الأول عند الرومان، وقد شغف ذلك كثيراً من علماء الإسكندرية بالرحلة إلى روما ؛ حيث الكسب مكفول وميدان العمل غير مغلق فقد حالت حال بلاطهم وتحول إلى روما حيث مقر الامبراطور وحيث الجاه والأبهة والسلطان.

وقد كان لهذا التحول أثره فقل عدد أعضاء الأكاديمية، ونقص بهذا الإنتاج العلمى. ونحن نعلم أنه منذ العهد الرومانى والأكاديمية قد تحولت إلى معهد دراسى، وأصبحت وظيفة هؤلاء تنشئة تلاميذ، وهم الذين عرفوا فيما مضى بالانصراف إلى غير هذا، بالانكباب على البحث والتنقيب. وقد تفرق هؤلاء العلماء ألسكندريون فى إيطاليا، رسل دعاية للحضارة الإغريقية حيث لمسوا فى الأباطرة التشجيع المادى والأدبى. أما فى الإسكندرية نفسها فقد نضبت الموارد وحرم علماء الإسكندرية بلاطاً كبلاط البطالسة معه التشجيع والرعاية. فانصرفوا عن البحوث التجريبية فى التاريخ الطبيعى والجغرافية الوصفية والفلك، وقد كانت الإسكندرية

فى هذا العهد مهد نشاط كبير لليهود. وبدأت حركة جدل بينهم وبين المسيحيين، وأفاد المسيحيون من ذلك بصراً بعلوم الإسكندرية وتذوقوا لوناً من ألوان ثقافتها.

وقد وجد هؤلاء المسيحيون ألا مندوحة لهم من دراسة الفلسفة الإغريقية، هذا إذا أرادوا لدينهم الجديد الذيوع؛ فعكفوا على دراسة آراء أفلاطون وأرسطو، وغير ذلك مما كان له كبير الأثر فى الديانة المسيحية بالإسكندرية. وقد ظهر من اليهود من حاول مزج التعاليم اليهودية بالفلسفة الإغريقية، وتزعم تلك الحركة ارسطبول وفيلون ويوسفوس، وقد أطلق على هذا النشاط العلمى وما أنتجوه من مؤلفات إغريقية. وقبل أن نكشف عن أغسطس قيصر وموقفه نحو الحركة العلمية بالإسكندرية، يجمل بنا أن نوضح مادار من جدل حول المكتبة، التى أهداها مارك أنطوان إلى كليوباترا عند حريق مكتبة الإسكندرية وقت حرق الأسطول. وقد سبق أن نوهنا بأن ما قدره ٢٠٠,٠٠٠ مجلدمن مكتبات برجامون أهدى إلى كليوباترا، وقد أكد لنا ذلك المؤرخ «بلوتارخ». غير أن «استرابون» (٥٨ - ٢٥م) شككنا فى هذا الأمر؛ إذ ذكر أنه فى زمانه كان لايزال لملوك برجامون مكتبة عظيمة، وقد حدا ذلك بعض المؤرخين إلى تأويل غير مقبول بأن الأمبراطور تيبريوس (١٤ - ٣٧م) كراهية منه فى مارك أنطوان، أمر بأن تعاد هذه المكتبة إلى مكانها الأصلى، ولكن هذا الفرض بعيد وغير مقبول. وقد اختلف الأقدمون فى المكان الذى وضعت فيه كليوباترا هذه الكتب؛ فقال البعض إنها وضعت فى السرابيوم، وقال آخرون إنها وضعت فى غرف خاصة فى القصور الملكية إلى أن تم تشييد معبد القيصرية أو السباستيوم. وقد ذكر فيلون الإسكندرى وصفاً شائقاً لهذا المعبد؛ فوصف مابه من تماثيل وقاعات فسيحة. على أن مايعنينا فيه أنه ذكر أن به «مكتبات»، ومن المعقول أن تكون هذه المكتبات هى مكتبة كليوباترا التى تحدثنا عنها. وقد بقيت هذه فى هذا المكان فى حى البروكيوم، وكان العلماء يترددون عليها فى العهد الرومانى. ويعتقد الدكتور «بوتى» أنه منذ عهد الإمبراطور سفيروس (١٩٣ - ٢١١م) لانسمع شيئاً ما عن هذه المكتبة.

ولقد كان للرخاء والأمن والطمأنينة التى تمتعت بها مصر أيام أغسطس (٣٠ق.م - ١٤م) أثر حسن فى حالة الأكاديمية، وقد كان هو نفسه شغفاً باللغة الإغريقية، فكان يتكلم بها فى سلاسة وإبانة، وكانت روما فى عهده مهبط العلماء الإغريق. وقد ظل أمر تعيين رئيس الأكاديمية بيد الإمبراطور، وكذلك اختيار أعضائها. على أن النظم العامة لم يطرأ عليها تعديل كبير. ولقد كان هوجلوس أول والٍ اختاره أغسطس، وكان شاعراً محباً للعلم

والعلماء، وكان لهذا بالطبع أثر حسن. وقد سار على غراره «تيبريوس» في حبه للعلماء، وكان يقرض الشعر وله شعر لاتيني ويوناني رصين، على أن «كلوديوس» (٤١ - ٥٤م) كان مغرماً بالكتابات التاريخية فكتب في تاريخ الأتروسكيين والقرطاجيين واهتم باللغة الإغريقية. على أن أهم خدماته هو توسيعه للأكاديمية وتأسيسه أكاديمية جديدة سميت باسم كلوديوم، وقد قيل إنه أراد بإنشائه هذا المعهد تبصير الشرق بالتشريع الروماني، وقد أراد أن يكون عملياً في هذا، فأمر بأن يقرأ فيه مؤلفه عن تاريخ الاتروسكيين الذى كتبه باللغة الإغريقية في عشرين مجلداً، وكذلك مؤلفه عن تاريخ القرطاجيين الذى كتبه في ثمانية مجلدات. وقد ساعده في إصلاحاته السيناتو بالبيلوس، قبل أن يصبح والياً على مصر عام ٥٥م في عهد نيرون. وقد كان موقع هذا الإكاديمية في جهة عمود السوارى، كما قرر الدكتور «بوتى» ذلك، وقد عدد المؤرخ اثينوس أعضاءها ولايمكننا معرفة تفصيلات دقيقة عن أعضاء هذه الأكاديمية الجديدة، على أننا نعلم أنهم كانوا مع أعضاء الأكاديمية الأخرى متعاونين، وكان يشرف على الجميع رئيس واحد.

ويجمل بنا أن نذكر شيئاً عن أهم علماء هذا العصر. اشتهر في هذا الوقت الفلكى سوسجن الذى كان يدين بآراء أرسطو وساعد يوليوس قيصر في تقويمه وقد أثنى بليني على ذلك العمل العظيم.

أما استرابون (٥٨ - ٢٥م) فقد ولد في أماسيا بإقليم بونتس، وتتلمذ لأرسطوديمس وتيرانيون واكسنارقس، وأشربت نفسه آراء أرسطو وقد حط رحله بالإسكندرية. وانكب على التأليف واختلف إلى المكتبة والأكاديمية، وتعرف الوالى جالوس وصحبه في رحلاته إلى مصر العليا حوالى عام ٢٥م، وقد تنقل استرابون في كثير من أنحاء الإمبراطورية الرومانية، وكتب مذكرات تاريخية، ولكن لسوء الحظ لعبت بها يد التلف. وقد اعتمد عليها بلوتارج ويوسفوس وأذيع مؤلفاته كتابه (الجغرافيا) وهو أول كتاب ضم المعلومات الجغرافية المعروفة إلى ذلك الوقت. وقد رجع فيما كتبه إلى آراء ارطوثينس ومزج بينها وبين آرائه، كما رجع أيضاً إلى تواليف الإغريق أمثال بوليبيوس وبوسيدنيوس، ويظهر أنه جعل كتابه في الجغرافيا ذيلاً لمذكراته التاريخية، ولاشك أن مكتبة الإسكندرية ومؤلفاتها كانت ذات الأثر القوى فيما كتبه استرابون.

أما أستاذه اكسنارقس فقد لحق بتلميذه بمصر، ولكنه لم يوفق توفيق تلميذه فغادر الإسكندرية إلى روما حيث نال من غدق الإمبراطور أغسطس أشياء كثيرة. واكسنارقس هذا من المشائين أتباع أرسطو، وقد تصدى لتدريس فلسفته فى روما والإسكندرية، وكان أرسطون معاصراً لهما. درس على اكسنارقس فلسفة أرسطو، وأخذ على استرابون كثيراً من آرائه الجغرافية. وقد حدثنا استرابون - فيما حدثنا عنه - أنه وضع كتاباً عن النيل، غير أننا نعرف لايدرو أحد المشائين كتاباً فى هذا الموضوع أيضاً، ويقال إنه منقول عن كتاب أرسطون وصورة منه.

وكان على أمانة المكتبة فى ذلك العهد عالم من العلماء هو شرمون إلا أنه مما يبعث الدهش ألا نجد بين أيدينا من المراجع شيئاً يذكر عن الأمانة والأمناء، منذ عهد أرسطويتم فى أيام بطليموس الخامس. فلا ندرى لعل الباعث إلى ذلك قيام الاضطرابات والقلاقل فى هذا العهد، فذهب فيما ذهب به بذكرياتهم وآثارهم، أو أن الأمناء كانوا أحط شأناً من أن يحفظ لهم التاريخ شيئاً.

وقد أقام تيبريوس شرمون هذا مربياً لأولاده، فغادر الإسكندرية إلى روما للقيام بمهام وظيفته الجديدة، ولاشك أن هذا كان تنويهاً بشأن المكتبة وأمناء المكتبة. وقد كان شرمون مؤرخاً دقيقاً فكتب وقد حفظ لنا بعض المؤرخين أجزاء منها، ولكن الكثير منها عفا واندرس.

وكان فيلون الإسكندرى حامل لواء النشاط الفكرى لليهود بالإسكندرية، ومع أنه كان عضواً بالأكاديمية إلا أن أبحاثه لاتقل عن آثار أعضائها، وقد حاول أن يمزج الفلسفة الإغريقية بالمعتقدات اليهودية، وقيل إن الصراع بين الفلسفة الإغريقية واليهودية كان عظيماً منذ عهد أرسطبول. وقد كان نهج فيلون فى كتاباته عرض المعتقدات اليهودية على نحو يبعد بينها وبين هجمات الفلاسفة الإغريق. ولما اشتد الصراع بين الإغريق واليهود، رحل فيلون إلى روما موفداً إلى الإمبراطور كاليجولا ليعرض قضية اليهود، ولكنه لم يوفق؛ لأن والى مصر إذ ذاك فلكس كان متنكراً لليهود واليهودية. وقد حمل يوسفس (٣٧ - ٩٥م) على عاتقه التوفيق بين الطرفين فزار الإسكندرية مع الإمبراطور فازبازيانس (٦٩ - ٧٩م). وتعد مؤلفاته من المراجع الأولى فى تاريخ اليهود، وقد حاول فى كتابه عن الآثار اليهودية أن يمجد اليهود فى أعين الرومان، ونال الحظوة فى أواخر أيامه عند كل من الأباطرة تيتس (٧٩ - ٨١م) ودومتيانس (٨١ - ٩٦م).

الفصل العاشر :

٧ـ المكتبة والأكاديمية إلى آخر عهد كراكلا ٥٤ـ٢١٧م

■ إن أول ما نلحظه عن نشاط الأكاديمية فى العهد الرومانى قلة اهتمام الأعضاء بالبحوث، فلم تعد البعثات تجوب الأقطار النائية لجمع المعلومات عن تلك الأقاليم، ولم يعد الأعضاء يهتمون بما كان البطالسة يشجعونهم على متابعته من بحوث فلكية وإنتاج فى العلوم الطبية والطبيعية. ولقد كان للمناداة بفازبازيانس (٦٩ - ٧٩م) إمبراطوراً بالإسكندرية أثر كبير فى نفوس السكندريين، الذين لم يروا إمبراطوراً منذ رحيل أغسطس عنهم. وقد اهتم هذا الإمبراطور بأمر المعلمين وتربية النشء، فأوقف على كثير من المربين المرتبات. وقد كان اهتمام الإمبراطور دومتيانس (٨١ - ٩٦م) بأمر مكتبات روما عظيماً، فقد رأيناه عقب حريق أصابها يرسل فى شراء كتب لها من جميع أجزاء الإمبراطورية. فأرسل إلى مصر النساخين الذين قاموا بنسخ كثير من الكتب لإرسالها إلى روما، ولهذا دلالة على أن مكتبة الإسكندرية كانت لذلك العهد رغم الحريق، الذى أصابها أيام يوليوس قيصر تتبوأ مكانة متميزة عند الأباطرة الرومان.

وقد سار كل من نارفا (٦٩ - ٩٨م) وتراجان (٩٨ - ١١٧م) سيرة فازبازيانس من تشجيع للمعلمين وحبس المرتبات عليهم، ولاشك إن إخضاع التعليم للحكومة كان من بوادر الانحلال فى العصر الرومانى؛ فقد قل الإقبال على التعليم حيث كانت الدولة دولة سيف لا دولة علم، ويجوز أن الحكومة رأت من الخير أن تحبس الوظائف المالية على هؤلاء المعلمين.

أما هادريان (١١٧ - ١٣٨م) فقد كان محباً للعلم والعلماء، ميالاً لدراسة اللغتين اللاتينية والإغريقية وأسس بروما وأثينا مكتبات عامة. وفى عام ١٣٥م زار الإسكندرية واختلف إلى الإكاديمية واتصل بأعضائها، وقد أقام أحد أساتذته فستينوس مديراً للأكاديمية. ونحن نرى

فى عهد هادريان ظاهرة واضحة، وهى أن الإمبراطور أخذ يدس فى الأكاديمية أعضاء من حاشيته ليسوا على جانب من العلم عظيم، وأصبحت العضوية لقباً فخرياً دون نظر إلى إنتاج علمى أو ميل أدبى. وقد عين هارديان ديونيسيوس وبوليمن وبنكرات الشاعر أعضاء بالأكاديمية.

وكان الإمبراطور أورليوس (١٦١ - ١٨٠م) أديباً يميل بطبعه للعلوم الفلسفية، وسار على غرار سلفه فى تشجيعه للمربين والمعلمين. على أن أهم مايلفت نظرنا فى هذه الحقبة ما قاسته الإسكندرية أيام الإمبراطور كراكلا (٢١١ - ٢١٧م)، فقد كان الإسكندريون يسخرون منه ويحاولون تشويه سمعته، فعزم على الانتقام وقدم إلى الإسكندرية، وأظهر أنه ماقدم إليها إلا تمجيداً لذكرى مؤسسها فانخدع الإسكندريون بمظهره، وقابلوه بالترحاب والحفاوة، ولكنه وسط مظاهر الأبهة التى أقاموها له صب جام غضبه عليهم، ونكل بشباب الإسكندرية. فسطا الجنود على المنازل يخربونها ويقتلون من بها وأصبحت الشوارع مخضبة بالدماء، واكتفى بأن كتب إلى أعضاء السيناتو بروما ينبئهم بما وقع، وأن ليس هنالك مايدعوه لذكر عدد القتلى، غير أن المسئ قد لقى جزاء إساءته. وقد بلغ من عنته أن بنى أسوار حول أحياء المدينة لتظل منعزلة بعضها عن بعض، وحرم على الجانب مغادرة المدينة، وحوالى عام ٢١٦م أغلق الصالة العامة، التى كان يجتمع فيها أعضاء الأكاديمية، وقد أشار إلى ذلك المؤرخ «كاسيوس».

وقد نال الفلاسفة وأعضاء الأكاديمية قسطاً كبيراً من التعذيب والاضطهاد، ولاسيما المشائين أتباع أرسطو فقد حرمهم امتيازاتهم، إذ ذكر كاسيوس أنه حرمهم من حضور الحفلات العامة بالإسكندرية. ولايغيب عن ذهننا أن الأكاديمية فى ذلك الوقت كانت معهداً تعليمياً فحسب، وكان أهم مايدرس بها اللغة والفلسفة والرياضة والطب. وقد لجأ كثير من العلماء إلى المكتبة واتخذوها مركزاً لهم، ويعتقد الدكتور «بوتى» أن أكاديمية البطالسة قد قضى عليها القضاء الأخير بعد عهد كراكلا، بينما ظلت أكاديمية كلوديوس الأول قائمة وبها علماؤها وأعضاؤها. ومنذ عهد اركاديوس (٣٩٥ - ٤٠٨م)، أطلق على الكلوديوم هذا اسم اركاديوم، ومنذ عهد جستنيان الأول (٥٢٧ - ٥٦٥م) أطلق عليه اسم الأفانجليوم.

ومن أشهر علماء هذا العصر أبولونيوس ديسكولس الذى برع فى اللغة. وقد ذاع صيته فى عهد الإمبراطور هادريان، واشتهر بمهارته فى الجدل وبكثرة مؤلفاته اللغوية. وقد كان

متواضعاً متقشفاً فقد قيل إنه كان معدماً لدرجة أنه لم يكن لديه مايشترى به ورقاً لكتاباته. ورغم هذا فقد تعالى وترفع عن أن يطلب المنح والعطاء، وظل معظم وقته فى المكتبة متفرغاً لبحوثه، بينما هرع الكثير إلى روما سعياً وراء الثروة والحظوة. ومما حفز العلماء إلى الهجرة من الإسكندرية تعيين الإمبراطور هادريان لكثير من علماء الإغريق أعضاء بالأكاديمية، دون النظر إلى مكانتهم العلمية، فقد أقيم بولمون عضواً بالأكاديمية مع أنه لم يؤد شيئاً لها.

وقد نزح أمونيوس من الإسكندرية إلى أثينا عن أمر نيرون ليقوم بالتدريس هنالك، وقد عرف هذا بنزعته إلى مزج آراء أفلاطون بأرسططاليس. ومن أشهر مؤرخى هذا العصر أبيان ولو أنه ولد بمصر، إلا أنه غادرها إلى روما حيث التحق بخدمة الأباطرة، وتقلد المناصب الإدارية التى شغلته عن متابعة بحوثه، وقد كتب عن تاريخ الرومان العام، إلا أنه بدلاً من أن يعالجه حسب العصور، عالج الحوادث تبعاً للأقاليم والممالك التى أخضعتها روما، وقد فقد جزء كبير من هذا المؤلف.

وحق للإسكندرية وأكاديميتها ومكتبتها أن تتيه على العالم فخراً ببطليموس الجغرافي. ولد بمدينة بلوزيوم وتألق نجمه فى عهد كل من هادريان وأنتونينس بيوس، وقد ذكر حياته لبحوث الفلكية، وظل مايربو على أربعين عاماً يدون مايرصده من مرصده فى كانوب (أبوقير الحالية). وقد اشتغل بالرياضة وحساب المثلثات والفلك والموسيقى والتاريخ والفلسفة وكتابه المجسطى أشهر مؤلفاته الفلكية، وهو مقسم إلى ثلاثة عشر كتاباً، وقد شغل علماء الإسكندرية وقتاً طويلاً بتدوين ملاحظات وتعليقات عليه. وقد ترجمه العرب إلى لغتهم، ونقل أيضاً إلى اللغة الفارسية والعبرية واللاتينية، وكان «الفونس» ملك قشتاله من المعجبين بهذا المصنف، فأمر بالقيام بترجمة لاتينية له على المتن العربى. ومما يزيد فى قيمة هذا الكتاب أنه استوعب تاريخ الفلك فى العالم القديم، وقد استعان بطليموس فى تأليفه بكثير من آراء هبارقس وقدروج فيه للنظرية القائلة بأن الأرض هى وسط المجموعة الشمسية، وقد أضاف فيه إلى ما قاله هبارقس بشأن النجوم وحركتها.

وكما استعان فى كتابه المجسطى بما كتبه الفلكيون من قبل، استعان فى جغرافيته بآراء مارينوس الصورى. ويعد بطليموس أول من حاول أن يرتب معلوماته الجغرافية على أساس علمى بحت ولاشك أن ميزته كفلكى ساعدته على أن يحدد ـ على أساس رياضى ـ علاقة الأرض بالأجرام السماوية الأخرى. ولكن اهتمام بطليموس بالجغرافية الوصفية كان لاشك

أقل من اهتمام استرابون. وقد كان للخرائط التى قام بها اغاثيمون شأن كبير فى أهمية جغرافية بطليموس، وقد ظل هذا الكتاب عمدة للجغرافيين طيلة العصور الوسطى لايحيدون عنه. وقد زعم بعض العلماء أنه أضيف إليه على مر العصور فصول طويلة، ولكن العالم مانرت فند ودحض هذا الرأى، ذلك لأن وحدة أسلوبه تثبت خلاف هذا الزعم. وقد كان بطليموس فيما ألفه فى التاريخ غير معتد به. فلكى يفسر ملاحظاته الفلكية وضع كتابه «قانون الملوك»، وهو سجل زمنى لملوك أشور وميديا والفرس والأباطرة الرومان إلى عهد انتونينس.

ولم تستطع الإسكندرية وأكاديميتها إنتاج مؤلفات فى الجغرافيا، تفوق ما تركه بطليموس. ولعل انشغالها بالدين والفلسفة أبعدها كثيراً عما كان بطليموس يبحث فيه طيلة حياته.

الفصل الحادى عشر :

٨ـ المكتبة والأكاديمية إلى آخر العهد الرومانى ٢١٧ـ ٦٠٠م

■ لقد كان للقلاقل السياسية التى حدثت فى غضون تلك الحقبة أثر كبير فى العلوم والآداب. ورأينا السكندريين يصبح لهم رأى مسموع فى انتخاب الأباطرة، وأصدق مثل على هذا ماكان لهم من جهد فى تنصيب الوالى اميليانس إمبراطوراً. ولكن الإسكندرية قاست من جراء النضال الذى تلى ذلك، وقد قيل إنها فقدت مايربو على ثلث سكانها، وتهدمت نواحى من حى البروكيوم كما تصدعت الأسوار التى كانت تحيط به، ويقال إن أورليان فى إخماده ثورة الإسكندرية هدم بناء الأكاديمية عام ٢٧٣م، وأرغم كثيراً من العلماء على هجرتها إلى السرابيوم.

ويقول «بتلر» إنه منذ القرن الرابع الميلادى ومكتبة الأكاديمية؛ أى المكتبة الكبرى قد تقوضت أركانها وحلت محلها السرابيوم؛ حيث انتقلت إليها الحركة العلمية. ونحن نعلم أنه خلال عام ٣٦٦م اشتعلت نيران الثورات الدينية وهدم معبد القيصرية، وأبيد معه مكتبته المتصلة به. ولقد كان لهذا أثره فى العلوم والآداب وإن كان «إميان مارسيلينوس» فى تاريخه (ينتهى بعام ٣٧٨م) يذكر لنا أن جذوة العلم لم تخمد نهائياً، وأن الطب ودراسته لم يخبو لهما نشاط. وقد أصبحت السرابيوم ميدان النشاط الفكرى ومحط رجال العلماء، بعد أن خبا نور العلم من حى البروكيوم. وقد ذكر افتنيوس ـ أحد علماء القرن الرابع الميلادى، وكان ممن زاروا السرابيوم قبل عام ٣٩١م ـ وصفاً شائقاً له، نعلم منه أن أن المكتبة كانت لاتزال قائمة، وأنها كانت متصلة بالمعبد. على أن أهم ماتمتاز به هذه الحقبة هو ذلك الصراع العنيد بين الحضارة القديمة، وبين الدين المسيحى، ذلك الصراع الذى شاهدت الإسكندرية عنفه وتهدمت فيه معاقل الحضارة الإغريقية القديمة، وكتب للمسيحية وما إليها من حضارة جديدة

به القوة والغلبة. فهدم السرابيوم وما به من تراث أدبى وضاعت مكتبته، فكان ذلك إيذاناً بزوال عالم قديم ونشأة عالم جديد.

لقد نوهت من قبل أن الدين المسيحى بدأ ينتشر فى مصر منذ عهد نيرون (٥٤ - ٦٨م)، وقد ذكر يوزيب وسنت جيروم بأن القديس مرقص كان فى طليعة المبشرين بالدين الجديد بالإسكندرية فى عهد هذا الإمبراطور. ومنذ ذلك العهد أقام المسيحيون لهم مدرسة خاصة بالإسكندرية، يلقنون فيها أتباعهم مبادئ الدين الجديد، ولم تكن فى أول أمرها مدرسة ذات نظام مقرر، ولكنهم ما لبثوا مع الزمن - وبانتشار الدين الجديد - أن وجدوا أنفسهم فى مسيس الحاجة إلى وضع نظم ثابتة، فوضعوها. ومنذ عهد أوليان والمسيحيون فى مدرستهم هذه يدافعون عن عقائدهم ويعملون على نشر تعاليمهم. ورأينا منذ عهد سنت بنتين الفلسفة والعلوم العقلية تدمج فى برامج هذه المدرسة؛ حتى تهيئ جيلاً يقوى على مجادلة الفلاسفة.

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن هذه المدرسة المسيحية لم تتخذ أكاديمية الإسكندرية أنموذجاً لها، ولم تحاول محاكاتها فى شئ ما، ولم يكن غرض مؤسسيها أول الأمر تنشئة عدد من العلماء المدربين الذين يجادلون فلاسفة الأكاديمية رغبة فى تنصيرهم، ولكنه منذ اعتنق الدين المسيحى كثير من الفلاسفة، وبدأ هؤلاء يعملون لنصرة دينهم الجديد، خلقت عندهم الرغبة فى تنشئة أتباع مسحلين بالعلوم العقلية؛ حتى يقدروا على تنصير إخوانهم فلاسفة الأكاديمية. ولم تكن أساتذة هذه المدرسة ذوى وظائف يتقاضونها من الأباطرة على أن هذه المدرسة أخرجت أمثال سنت كلمنت الإسكندرى وامونيوس واوريجن، ومنذ عهد قسطنطين ٣١٣ - ٣٣٧م والدين المسيحى أصبح هو الدين الرسمى للحكومة. على أن القسطنطينية منذ ذلك الوقت أصبحت منافسة للإسكندرية وأثينا؛ إذ هرع إليها كثير من العلماء ليكونوا على كثب من بلاط الإمبراطور. وليس هذا كل مانالته الإسكندرية وعلماؤها الأقدمون فقد بدأ البطارقة يصبون جام غضبهم على ممثلى الوثنية والحضارة الإغريقية.

ولما كان السرابيوم هو معقل الوثنية والفلسفة الإغريقية، فقد اتجهت الأنظار نحوه، ولما أصدر ثيودوسيوس الأول (٣٧٨ - ٣٩٥م) قوانينه المعروفة عمل البطريق ثيوفيلس وجنوده على تقويض البقية الباقية عام ٣٩١م والمكتبة المتصلة به، وذكر نوريسون أن المكتبة نقلت إلى روما وإلى القسطنطينية؛ حيث كان ثيودوسيوس الثانى يعمل على إنشاء مكتبة له، على أنه ليس من المسلم به أن يسمح بنقل هذه الكتب إلى القسطنطينية؛ حيث كان الغرض من

كل ذلك القضاء على آثار الوثنية. أما الدكتور «بوتى» فلا تجد له رأياً حاسماً فى هذا، فبينما هو يقول إنه استولى عليها وأن حكومة القسطنطينية استولت عليها عام ٣٦٢م؛ إذا نجده يقول مرة أخرى باحتمال إحراقها على يد جوفيان ٣٦٣ - ٣٦٤م، ونلاحظ أن «بوتى» يعتقد أن المكتبة قضى عليها قبل أن يهدم المعبد عام ٣٩١م. وسواء نقلت المكتبة إلى القسطنطينية قبل هدم المعبد عام ٣٩١م أو بادت مع هدم المعبد، فالأمر واحد، وهو أنه فى عام ٣٩١م لانجد لمكتبة السرابيوم وجوداً. وقد شاهد روفينوس هدم المعبد وكتب عنه ووصفه وصفاً ينير لنا السبيل. ومع أنه لايحدثنا عن المكتبة ولكن من وصف أفتنيوس للمكتبة وأنه كانت قطعة ذات صلة وثيقة بالمعبد، نكاد نجزم أن ماينال المعبد من تخريب لاشك واقع أثره على المكتبة، فروفينوس وافتنيوس يكمل أحدهما الآخر ويثبتان معاً زوال مكتبة السرابيوم فى أواخر القرن الرابع الميلادى. أما المؤرخ أورسيوس فقد ذكر لنا أنه حوالى ٤١٦م رأى مخازن الكتب إلا أنها كانت خاوية. ومع أن أورسيوس لايتكلم عن مكتبة السرابيوم، إلا أنه يثبت أنه لم تكن بالإسكندرية مكتبة كبيرة حوالى عام ٤١٦م. وفى ذلك يقول «بتلر»: «حقاً إن أورسيوس لم يشهد تخريب مكتبة السرابيوم عام ٣٩١م، ولكن كتاباته تنطق فى صراحة بأنه لم يكن بالإسكندرية ثمة مكتبة ما عام ٤١٦م».

ويجمل بنا أن نتحدث عن بعض علماء هذا العصر ونشاطهم الفكرى، ثم عن حالة العلوم والآداب فى القرنين السادس والسابع الميلادى. درس الفيلسوف سنت بانتين مبادئ المسيحية فى بلاد اليونان ومصر، ثم اعتنقها وأخذ يعمل على نشر مبادئها فى الإسكندرية وكان له أتباع كثيرون، منهم سنت كلمنت الإسكندرى الذى نشأ فى الإسكندرية ودرس الفلسفة، وتنقل بين بلاد اليونان وإيطاليا وأخيراً استقل به المقام بالإسكندرية، وجعله المسيحيون رئيساً لمدرستهم، فشرح فى كتاباته المعتقدات المسيحية، وقد كان من أمهر تلاميذه أوريجن (١٨٥ - ٢٥٣م)، ولو أنه كان أقرب فى تلمذته إلى الفيلسوف أمونيوس سكاس، منه إلى سنت كلمنت الإسكندرى.

ويعد أمونيوس سكاس أشهر فيلسوف نبغ فى القرن الثالث الميلادى، ويعتبر مؤسساً للأفلاطونية الحديثة. ولا نعلم الشيء الكثير عن حياته، ويحدثنا عنه يوزيت أنه ولد مسيحياً إلى أواخرا أيامه، غير أننا لانزال فى شك من هذا، وقد ذكر «تبر» أنه لو كان مسيحياً لما تتلمذ عليه كثير من أتباع الفلسفة الإغريقية، ولو أنه كان ينادى بتعاليم أفلاطون فحسب ما

اختلف على دروسه كثير من المسيحيين. والواقع أنه جمع مذهبه من هنا ومن هناك، وحاول أن يوفق بين أتباع أرسططاليس وأتباع أفلاطون وتوفى حوالى ٢٤٥م. ومن تلاميذه بلوتين (٢٠٤ - ٢٧٠م). ولد بمصر وحضر بالإسكندرية محاضرات أمونيوس إلى عام ٢٤٢م، ثم رافق الحملة التى جردها جورديان الثالث (٢٣٨ - ٢٤٤م) ضد الفرس، وكان غرضه من ذلك دراسة الفلسفة الفارسية والهندسة. ولكن بعد موت جورديان، نزح إلى روما، وأخذ يقوم بإلقاء محاضرات عن مذهبه، واستمع له كثيرون، وترك مؤلفاً، له شرح فيه الأفلاطونية الحديثة، وإن كان تلميذه بورفرى هو الذى قام بقسط كبير فى ترتيبه ونشره.

الفصل الثانى عشر :

العلوم والآداب
فى القرنين السادس
والسابع الميلادى

■ لقد كانت الدولة الرومانية الشرقية فى كفاح مستمر طيلة القرن السادس مع دولة الأكاسرة، وقد تمكنت جيوش الفرس من اجتياح سوريا وفلسطين، فهرب كثير من سكان تلك الأقاليم إلى مصر، هاربين من وجه الغزاة ولما اجتاح العدو الدلتا اكتظت الإسكندرية باللاجئين إليها من مختلف الجنسيات، وتعقدت بها مسائل التموين وقد خضعت مصر لحكم الفرس مدة عشر سنوات (٦١٦ - ٦٢٦م)، إلى أن تمكن هرقل (٦١٠ - ٦١٤م) من طردهم نهائياً. على أن كل ذلك كان من عوامل الاضطراب وعدم استتباب الأمن، الأمر الذى أثر أكبر الأثر فى العلوم والآداب بمصر قبيل قدوم العرب إليها. ولاشك أن الكثير من تراث الإسكندرية قد ذهب أثناء هذه القلاقل. على أن مدرسة الطب بها كانت لاتزال لها شهرة عالمية، فقد حدثنا «زكريا المتليتى» أن طبيب بازيلسكوس كان سكندرياً، ونلاحظ أن كثيراً من كتب الطب كانت باللغة السريانية، وكانت هذه اللغة وآدابها من أهم اللغات التى تدرس بالإسكندرية فى ذلك الوقت. وقد كان لهجرة كثير من السريان إلى مصر نتيجة للخطر الفارسى أثر كبير فى هذه الحركة، ولعل الدير السوريانى فى وادى النطرون يرجع إنشاؤه إلى ذلك العهد. على أن كثيراً من معلوماتنا عن الحياة فى الإسكندرية فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع، استقيناها من كتابات حنا مسكوس (٥٥٠ - ٦١٩م)، الذى قام برحلات طويلة مع تلميذه سفرنيوس بطريق بيت المقدس فيما بعد، وقد عاش هذان مدة طويلة بالإسكندرية وزارا عدداً كبيراً من الأديرة المنتشرة فى الصحراء، وجمعا روايات مختلفة هى مادة تاريخية ذات أثر. وفى أواخر أيامها نزحا إلى روما وقام مسكوس بتأليف كتابه «مسارح الروح»، الذى نشره تلميذه سفرينوس، وقد ذكر لنا ب«تلر» ما حكاه مسكوس فى كتابه هذا عن أحد العلماء، وهو كوزماس وتفرغه للعلم، فقال عنه إنه كان لديه أكبر مكتبة فى الإسكندرية وكان يبيح الاستعارة الخارجية لكتبه، فكأنها كانت مكتبة عامة

للجمهور. على أننا نلحظ أنه على الرغم من غرام مسكوس وسفرينوس بالكتب .. فإنهما يقفان جامدين حيال مكتبة الإسكندرية، ونلحظ أيضاً أن تحلية المخطوطات كان يقوم بها كثير من الرهبان، فى الأديرة المنتشرة فى وادى النطرون، ولقد ظلت الإسكندرية مركزاً عظيماً لصناعة الورق والبردى، كما كانت فى الوقت نفسه مركزاً عظيماً لصناعة السفن.

الفصل الثالث عشر :

فتح العرب لمصر بقيادة عمرو بن العاص وفتح الإسكندرية

■ **فتح مصر :**

«مصر تربة غبراء، وشجرة خضراء، طولها شهر وعرضها عشر، يكنفها جبل أغبر، ورمل أعفر، يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات، يجرى بالزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر له أوان ... بينما هى درة بيضاء، إذا هى عنبرة سوداء، وإذا هى زبرجدة خضراء، فتعالى الله الفعّال لما يشاء، الذى يصلح هذه البلاد وينميها ويقر قاطنها فيها...»

عمرو بن العاص

من كتاب له إلى الخليفة عمر يصف له مصر

■ **فتح الإسكندرية :**

«لقد فتح الله علينا مدينة من صفتها أن بها أربعة آلاف قصر، وأربعة آلاف حمام، وأربعمائة ملهى، واثنى عشر ألف بائع للخضر، وأربعين ألفاً من اليهود وأهل الذمة...»

عمرو بن العاص

من كتاب له إلى الخليفة عمر يصف له مصر

■ عندما تم لعمرو بن العاص فتح حصن بابليون والكثير من المدن والقرى المصرية بالوجه البحرى، اتجه غرباً لمدينة الإسكندرية واختار لطريقه فرع رشيد، عندما اكتمل فيضان النيل، وعندما اقترب العرب من الإسكندرية، هالهم ما وقعت عليه عيونهم من مظاهر تفوق ماشهدته عيونهم فى دمشق وبيت المقدس وأنطاكية.. فقد بدت لهم الإسكندرية فى صورة عظيمة بارعة نادرة.. المدينة التى بناها الإسكندر على البحر الأبيض وحملت اسمه ثم جاء عمرو ليضمها إلى الدولة الإسلامية ويقيم فيها شعائر الإسلام وينشر فى أرضها عبادة الله الواحد القهار.

كانت مدينة الإسكندرية ثانية عواصم الأمبراطورية الرومانية الشرقية، وأول مدينة تجارية فى العالم، ولهذا عنى الرومان ومن قبلهم البطالسة بتحصينها، لتقوى على رد غارات المغيرين، وضد هجمات الفاتحين، وبالنسبة لوقوعها على بحر الروم فقد كان يتدفق عليها المدد من امبراطور الروم.

وكانت مدينة الإسكندرية من أعظم البلاد هندسة ورونقاً وبهاءً وجمالاً، أسوارها.. مبانيها.. قصورها.. حدائقها..

قال الاصطرخى يصف الإسكندرية «إن الإسكندرية مدينة يكثر المرمر فى أرضها وبنائها وعمدها».

وقال السيوطى «إن المدينة تبدو بيضاء لامعة فى النهار والليل».

وقال أيضاً إن أرضها وبناءها من المرمر الأبيض، وكان تألق الرخام سبباً فى أن يتخذ الرهبان اللون الأسود فى لباسهم، وأن أحداً ما كان يستطيع أن يدخل المدينة إلا إذا اتخذ غطاء لعينيه يقيها بهر الطلاء والمرمر.

وقال أيضاً إن الحائك يستطيع فى ضوء القمر، إذا وقع على الرخام الأبيض أن يضع الخيط فى الإبرة دون أن يستعين بمصباح يضئ له.

وقال المسعودى «إن الناس كانوا يتخذون ستراً من الحرير الأخضر يغطون به الطرق، يتقون بذلك وهج الضوء على الرخام».

وقال أيضاً «وإن الطرق كلها كانت تكتنفها العمد، وكان هناك طريقان عظيمان، أحدهما يصل أول المدينة فى الشرق بآخرها فى الغرب (بين باب الشمس وباب القمر)، والثانى يصل شمال المدينة بجنوبها، والطريقان يلتقيان فى ميدان فسيح به حدائق وقصور».

وذكر السيوطى نقلاً عن ابن عبدالحكم أن الإسكندرية كانت تشتمل على ثلاثة أحياء، هى: حى المصريين وحى الروم وحى اليهود، وكان لكل حى سور قائم بها ويحيط بالأحياء الثلاثة سور كبير.

وروى حنا مسكوس «إن المدينة كانت بها جنات فى وسطها».

وروى عبدالله بن ظريف أن المدينة كان بها سبع قلاع وسبعة خنادق.

وقال السيوطى «إن الإسكندرية مدينة قائمة على مدينة ليس فى البلاد مثلها على وجه الأرض»، وكان يقصد بذلك المبانى الكثيرة التى وجدها العرب تحت أرضها، فقد رأوا تحت أرضها عدداً كبيراً من الصهاريج بعضه يلى بعض فى طبقات أربع أو خمس، وكان فى كل طابق عدد من الحجرات والأعمدة.

وكان بالإسكندرية عدد عظيم من الأعمدة ذات علو شامخ وحجم كبير.

وكانت الإسكندرية مليئة بقصور البطالسة، وبها المقبرة الكبرى التى فيها جثة الإسكندر فى غشاء من الذهب، وبها فى التترابيلوس وكنيسة القديسة ماريا دروثيا وكنيسة القديس مرقص وكنيسة القديس تيودور وكنيسة القيصريون.

ومن أهم أبنية الإسكندرية التى كان لها أثرها فى نفوس العرب السرابيوم، وهو طائفة من الأبنية ذات جمال رائع، وكان هذا البناء فى الحى المصرى حيث يقوم عمود دقلديانوس الذى أسماه العرب عمود السوارى.

وكان بجانب هذا البناء بناء آخر اسمه الاقوس، وكانت له قبة مذهبة عالية قائمة على دائرة مزدوجة من الأعمدة.

وكانت منارة الإسكندرية موضعاً لإعجاب العرب ودهشتهم، وكان الغرض منها هداية السفن، بناها سوستراتوس الكنيدى فى أيام بطليموس فلادلفوس، وكانت فى أيام فتح العرب صالحة لم يفسد منها شيء، تلمح فى النهار فى ضوء الشمس، وتضئ بنورها فى الليل إلى بعد عدة فراسخ من الإسكندرية.

كانت الإسكندرية هى أرض المعركة.

وكانت قوتها تبلغ نحواً من خمسين ألفاً والأقوات بها وفيرة.

وكانت أسوارها قوية منيعة تحميها آلات قوية.

وكان البحر يحمى المدينة من الشمال، وبحيرة مريوط والترعة تحميانها من الجنوب، وكانت إلى غربها ترعة الثعبان.

ولم يعد أمام العرب إلا شرقها وجنوبها الشرقى.

قلنا إن الأسوار كانت قوية ومنيعة.

وكان لدى الروم كثير من المجانيق التى كانوا يصيبون بها العرب من فوق الأسوار، ويلقون بها عليهم وابلاً من الحجارة الضخمة.

ولم يكن لدى العرب من آلات الحصار شئ، ورغم أنهم غنموا الكثير منها إلا أنهم لم يستطيعوا نقلها.

وكان العرب يعتمدون على الخيل اعتماداً كبيراً، وكذلك على روحهم فى الحرب، وماكانوا يمتازون به من الإيمان العميق والصبر والجلد.

كانت خطة عمرو فى أول الأمر أن يحاصر المدينة، ولكن لم يتحقق له ذلك إلا من جانب واحد فقط فقد كانت المدينة محاطة بالمياه من جهاتها كلها إلا من الجانب الشرقى والجانب الجنوبى الشرقى، ولم يكن مع عمرو سلاح بحرى أو أسطول يواجه به المدينة من البحر كما

لم يكن فى استطاعته الاقتراب من الأسوار؛ خاصة أنه حمل بجيشه ـ فى أول قدومه على الإسكندرية ـ على أسوارها فصده الروم وألقت مجانيقهم على جنده وابلاً من الحجارة فارتدوا مبتعدين عن مدى رميها، ولم يجرؤوا بعد ذلك على أن يتعرضوا لقذائفها؛ ولهذا اكتفى عمرو بأن تظل قواته فى أماكنها بعيدة عن مرمى المناجيق.

ولاشك فى أنه كانت هناك نتائج مفيدة مترتبة على بقاء العرب فى معسكرهم فى الشرق والجنوب الشرقى، إذ أنهم قطعوا بوجودهم الصلة بين الروم وبين سائر البلدان فى مصر.

أدرك عمرو أنه لن يستطيع فتح المدينة عنوة، وأنه لن يستطيع أخذها بالهجوم، ولكنه كان يأمل أن يخرج له العدو ويناجزه القتال معتمداً على كثرته العددية.

ورأى عمرو أن أشهر الصيف قد قربت، وأن النيل سيبدأ فيضانه، وأنه لن يستطيع خلال فترة الفيضان السير إلى بلاد مصر السفلى.

وعلم عمرو أن كثيراً من الروم القاطنين حول الإسكندرية قد تركوا قصورهم ومنازلهم، فأمر باحتلالها وأصبحت هذه المنازل والقصور فى متناول أيدى قواته.

وبعد هذا التقدير للموقف، قرر عمرو أن يقوم بعمليات ثانوية بجانب بقاء قواته أمام المدينة فى انتظار مايسفر عنه الموقف، وانتهى تقديره للموقف إلى وضع خطة تقوم على الأساس التالى...

١ ـ ترك جزء من قواته فى موضعها لمراقبة المدينة، والاستمرار فى قطع الصلة بينها وبين سائر البلاد المصرية، على أن تكون هذه القوات بعيدة عن مرمى المناجيق.

٢ ـ القيام بعمليات هجومية فى بلاد مصر السفلى.

٣ ـ هدم الكثير من منازل وقصور الروم وأخذ خشبها وحديدها وإرساله إلى حصن بابليون لإقامة جسر فوق النيل.

وحدث قبل أن يبدأ عمرو فى تنفيذ خطته أن اشتبك الفريقان فى قتال عنيف، واستطاع المسلمون أن يقتحموا المدينة، إلا أن الروم قاتلوا فى شدة وحملوا على المسلمين حملة شديدة منكرة، فتراجعوا إلا أربعة منهم كان منهم عمرو ومسلمة بن مخلد، فأمر الروم رجلاً منهم أن يحدثهم فقال لهم «إن فى أيدى أصحابكم منا رجالاً أسروهم، ونحن نعطيكم العهود،

نفادى بكم أصحابنا ولانقتلكم» فأبوا عليهم، فلما رأى الرومى ذلك منهم، قال لهم «هل لكم إلى خصلة وهى نصف، إن غلب صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وامكنتمونا من أنفسكم، وإن غلب صاحبكم صاحبنا خلينا سبيكم إلى أصحابكم» فرضوا بذلك، وبرز رجل من الروم عرف بينهم بشدته ونجدته، وأراد عمرو أن يبرز إليه، ولكن مسلمة منعه وقال له «ماهذا؟ تخطئ مرتين!! تشذ عن أصحابك وأنت أمير، وإنما قوامهم بك وقلوبهم معلقة نحوك لايدرون ما أمرك حتى تبارز وتتعرض للقتل، فإن قتلت كان ذلك بلاء على أصحابك، مكانك وأنا أكفيك إن شاء الله» وتمكن مسلمة من الرومى فقتله. فوفى لهم الروم بما عاهدوهم عليه، فخرجوا ولم يدر الروم أن عمراً واحد منهم، فلما علموا بذلك أسفوا غاية الأسف لأنه فات منهم، وذكر إيرفنج فى كتابه «حياة خلفاء محمد» أن عمراً تحدث إلى حاكم المدينة بكلام يدل على الشجاعة وسمو المركز، فاشتبه فيه الحاكم وأمر بقتله، وكان وردان بجانبه فأدرك ماقرره الحاكم، وتصرف تصرفاً ينقذ به عمراً، فضربه على وجنته وقال له «صه أيها الكلب لاتتكلم أمام رؤسائك» ثم قال للحاكم «إن الخليفة بعث لعمرو بن العاص يأمره بالكف عن الحصار ومصالحة الروم» وطلب من الحاكم أن يكون هو واسطة بينه وبين عمرو فقبل الحاكم وخلى سبيله.

وحدث أن خرجت جماعة من المدينة وحملوا على المسلمين فقلتوا رجلاً من مهرة واحتزوا رأسه وانطلقوا به، فأبى المهريون أن يدفنوه إلا برأسه فقال لهم عمرو «احملوا على القوم إذا خرجوا فاقتلوا منهم رجلاً ثم ارموا برأسه يرمونكم برأس صاحبكم».

وخرج إليهم الروم فقتلوا منهم رجلاً من البطارقة واحتزوا رأسه ورموا به إلى الروم فرمت الروم برأس المهرى صاحبهم إليهم فقال عمرو «دونكم الآن فادفنوا صاحبكم».

أمر عمرو بحصار المدينة من الجنوب الشرقى والشرق، ثم تحرك على رأس سرية من قواته غير كبيرة العدد إلى كريون ثم إلى دمنهور، وتحرك شرقاً خلال الإقليم الذى يعرف اليوم باسم الغربية حتى بلغ سخا.

وكان يهدف إلى أن ينزل على المدينة فجأة ويأخذها على غرة، ولكنه فوجئ بالمدينة محاطة بالأسوار والمياه، فلم يستطع أن يحقق ما كان يهدف إليه، وذكر ذلك حنا النقيوسى فقال «إن عمراً لم يستطع أن يحدث أثراً ما فى سخا».

وتحول عمرو بسريته إلى الجنوب حتى بلغ طوخ، ثم سار إلى دمسيس، إلا أن أهل القريتين صمدا أمام العرب، فلم يستطيعوا فتحها وارتدوا عنها.

وقيل إن عمراً قضى فى تحركاته هذه اثنى عشر شهراً، وانه وصل حتى مدينة دمياط على الفرع الشرقى للنيل، وذكر حنا النقيوسى أن عمراً أخفق فى فتح بلادهم.

لما كان فى إقليم الصعيد جنود للروم، فقد خرجت كتيبة عربية مسلحة إلى الصعيد يقودها خارجة بن حذافة حتى بلغت مدينة انطنويه، وذهب الناس إلى حنا حاكم الإقليم وطلبوا منه أن يستعد لقتال العرب، إلا أنه خاف أن يقاتل العرب فيلقى ما لقيه جنود الفيوم، فجمع الأموال العامة، وخرج بجنده ضارباً فى الصحراء قاصداً إلى الإسكندرية.

وتم فتح بلاد الصعيد كلها، وخرج الروم منها فى عام ٦٤١، ولم يبق منهم فيها إلا القليل الخائر الهمة، الذى رضى بوضعه ولم يفكر فى مناوأة المسلمين أو منازعتهم السلطان.

انقسم الروم على أنفسهم أحزاباً وشيعاً، وقام حزبان رئيسيان فيهم هما الأخضر والأزرق، واشتد بينهما الخلاف لدرجة أنستهما العدو الرابض عند أبواب مدينتهم، وكان يثار القتال بين الحزبين، ويقول حنا النقيوسى أن سبب الخلاف يعود إلى اختلاف المذاهب الدينية، ومع هذا ذكر عند وصفه نضال الأحزاب أن ذلك راجع إلى عداوات خاصة.

عاد قيرس إلى الإسكندرية بعد أن أبعد عنها مدة طويلة، واستقبلته المدينة بفرح شديد، وذكر النقيوسى «أن أهل المدينة ملكهم الفرح فخرجوا يظهرون سرورهم، ويشكرون الله على عودة قيرس بطريق الإسكندرية».

وقيل إنه وصل الإسكندرية وفى نيته تسليم البلاد كلها للعرب، وكان يرمى إلى زيادة سلطانه الدينى بالإسكندرية، وأنه أخفى ذلك على كبار قادة الدولة فى الإسكندرية، وقام بعدة اتصالات سرية خفية مع عمرو، وأنه كان متفقاً على ذلك مع إمبراطور الروم الذى وافق على تسليم البلاد إلى العرب.

فى ٥ أكتوبر سنة ٦١٠ أصبح هرقل إمبراطوراً للروم.

وفى ١١ فبراير سنة ٦٤١ انتهى حكم هرقل بموته.

وتولى حكم الروم من بعده ولداه قسطنطين وهرقل، وشاركتهما فى الحكم الإمبراطورة مارتينا أم هرقل، التى ماكانت لترضى بقسطنطين بمثل هذا الاشتراك فى الحكم.

وكان قسطنطين أكبر الأخوين وكان محبوباً عند الناس.

وتولى شئون الدين فى الإمبراطورية الراهب بيروس، وكان يميل إلى جانب قسطنطين ولهذا بايعه بالملك دون مرتينا أو أحد أولادها.

ويقول بورى « إن مرتينا كانت على وفاق مع البطريق بيروس ولابد أن يكون بيروس قد غير رأيه ودخل حزباً غير حزبه الأول».

وأرسل قسطنطين يدعو قيرس من منفاه، وأرسل أيضاً فى استدعاء تيودور من مصر ليقف منه على الحالة في مصر، وكان رأى تيودور ألا يدخل الروم فى أى صلح مع العرب، وأقنع الإمبراطور بإرسال إمدادات كبيرة إلى مصر فى أثناء الصيف.

وأمر الإمبراطور فعلاً بتجهيز السفن وإعداد الجند.

وفى ٢٥ مايو سنة ٦٤١ مات قسطنطين.

واتخذت مرتينا أم هرقل من موته ذريعة توسلت بها إلى المبايعة لابنها هرقل، إلا أن جماعة من أعيان الدولة والجند بايعوا كونستانس ابن قسطنطين شريكاً لهرقل ولمرتينا فى الحكم، وأعاد هرقل قيرس إلى حكم الإسكندرية، واتفق معه على أن يصالح العرب، وأن يقضى على كل قتال فى البلاد، وأن يعمل على إقرار الأمر فيها وإدارة شئونها، ولعله كان بذلك يأمل أن تبقى للدولة الرومانية السلطة والسيطرة على مصر، ولقد حصل الإمبراطور على الموافقة على رأيه هذا من مجلس الشيوخ ورجال الدين والأمبراطورة مرتينا.

كان عمرو بن العاص قد عاد إلى بابليون ليستريح بأصحابه فى أوان فيض النيل.

وإلى بابليون خرج قيرس وحده يحمل عقد الإذعان والتسليم.

والتقى عمرو وقيرس فرحب عمرو به وأكرم وفادته... ولما حدثه قيرس فى أمر الصلح قال له عمرو «لقد أحسنت فى الشخوص إلينا» فرد عليه قيرس «إن الله قد أعطاكم هذه الأرض، فلا تدخلوا بعد اليوم فى حرب مع الروم».

وبدأت المفاوضات من أجل الصلح، وبه تم فتح العرب لبلاد مصر وكانت شروط الصلح :

١ ـ أن يدفع الجزية كل من دخل فى العقد .

٢ ـ أن تعقد هدنة ومدتها ١١ شهراً، تنتهى فى ٢٨ سبتمبر سنة ٦٤٢ .

٣ ـ أن يبقى العرب فى أماكنهم وألا يسعوا إلى قتال الإسكندرية، وأن يكف الروم عن القتال .

٤ ـ أن يرحل جنود الروم بالإسكندرية بحراً ومعهم متاعهم وأموالهم .

٥ ـ أن لايعود جيش الروم إلى مصر بقصد ردها .

٦ ـ أن يكف المسلمون عن أخذ كنائس المسيحيين، وأن لايتدخلوا فى أمورهم .

٧ ـ أن تباح لليهود الإقامة فى الإسكندرية .

٨ ـ أن يبعث الروم رهينة من قبلهم لضمان تنفيذ العقد .

وذكر الطبرى نص الصلح فقال : «هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبحرهم، لايدخل عليهم شئ من ذلك ولاينتقص، ولاتساكنهم النوبة، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف ... ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى منهم واختار الذهاب، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا .. عليهم ما عليهم أثلاثاً فى كل ثلث جباية ثلث ماعليهم، وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمين المؤمنين» .

وذكر الطبرى أن شهود هذا العقد هم الزبير وعبدالله ومحمد بن عمرو، وأن كاتب العقد هو وردان .

اتفقت أكثر الروايات على أن فتح مصر تم صلحاً، ومع هذا فقد ذكر بعض المؤرخين أن العرب فتحوا الإسكندرية عنفاً، فقد اتفق ابن عبدالحكم والبلاذرى على أن المسلمين هاجموا المدينة وفتحها الله عليهم، وأن ذلك تم فى شهر المحرم سنة عشرين هجرية، ويقولون إن خطاباً وصل إلى عمرو من عمر يقول له «فإذا أتاك كتابى هذا فاخطب الناس وحضهم على القتال ورغبهم فى الصبر والنية» .

ويقولون أيضاً أن عمرواً جمع الناس وقرأ عليهم خطاب الخليفة، واتفق الرأى على أن يعقد لعبادة بن الصامت ليتولى قتال الروم، فقاتلهم، وفتح الله عليه الإسكندرية.

وذكر البلاذرى أن عمراً رفض ما عرضه عليه قيرس للصلح، فأمر قيرس أن تقف النساء على سور المدينة مقبلات بوجوههن إلى داخله، وأن يقيم الرجال بوجوههم إلى المسلمين ليرهبهم بكثرتهم، فأرسل إليه عمرو «إنا قد رأينا ما صنعت وما بالكثرة غلبنا من غلبنا، فقد لقينا هرقل ملككم فكان من أمره ماكان» وقال قيرس لقومه «صدق هؤلاء القوم أخرجوا ملكنا من دار مملكته إلى القسطنطينية فنحن أولى بالإذعان» فأغلظوا له القول وقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً. وحاصروهم ثلاثة أشهر ثم أن عمراً فتحها بالسيف».

لقد تم لعمرو فتح مصر... واستسلم أهلها للعرب واستتب الأمر فيها للمسلمين...

ترى ماذا حدث بعد ذلك؟؟

ماذا حدث فى جانب العرب؟؟

لقد حدث...

١ - إبلاغ الخليفة

بعث عمرو معاوية بن جُدَيج الكندى إلى الخليفة عمر يحمل إليه نبأ الفتح، وطلب معاوية من عمرو أن يبعث معه كتاباً فقال له «ماذا عسانى أفعل بالكتاب؟ ألست أمرءاً عربياً تقدر على وصف أمر شهدته..».

وبعد رحلة طويلة فى الصحراء رحل معاوية إلى المدينة وقت الظهر، وأبلغ عمر الخبر «خير يا أمير المؤمنين فتح الله علينا الإسكندرية» فقام عمر معه حتى دخل المسجد وأقام صلاة الشكر لله ولما عاد مع معاوية إلى البيت أدى الصلاة مرة أخرى...

وقد روى أحد المؤرخين ذلك فقال «... وافق مقدمه وقت الظهر فأناخ راحلته عند باب المسجد، ودخل وفيما هو هناك خرجت جارية من بيت عمر، فلما رأت رجلاً غريباً عليه وعث المسافر سألته عن اسمه فقاله لها، ثم قال إنه جاء يحمل رسالة من عمرو بن العاص، فعادت الجارية إلى الدار فما لبثت أن جاءت مسرعة إليه، حتى سمع معاوية خفق نقابها على أقدامها إذ تجرى إليه، ثم أمرته أن يتبعها إلى البيت، فلما جاءه سأله عمر عن الأنباء فقال

«خير يا أمير المؤمنين، فتح الله علينا الإسكندرية» فقام معه عمر حتى عاد إلى المسجد، وأذن المؤذن للصلاة، فأقام عمر صلاة الشكر لله على ما أولى، ولما عاد مع معاوية إلى داره صلى مرة أخرى، ثم طلب الطعام، فقدم له خبز وزيت يؤتدم به، فوضع ذلك أمام الضيف فأصاب منه شيئاً خفيفاً على استحياء، ثم أتي بتمر فوضع له، وكان هذا أكبر ماعند الخليفة من لذائذ الطعام وأطايبه، ثم اعتذر معاوية بأنه لم يبادر إلى حمل نبأ الفتح لأنه ظن عمر نائماً وقت القيلولة، فقال له عمر «بئس ما قلت وبئس ماظننت، لئن نمت النهار لأضيعن الرعية، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين».

٢ ـ إعلان الصلح

عاد قيرس إلى الإسكندرية حاملاً معه شروط الصلح إلى تيودور القائد العام لقوات الروم، وترددت فى المدينة أنباء الصلح، وأرسلت شروطه إلى الإمبراطور هرقلوناس لاعتمادها.

ودعى قيرس كبار القادة وعظماء رجال الدولة وأعلنهم نبأ الصلح.

وعلم الجند والأهالى بالصلح فغضبوا وأسرعوا إلى قيرس، الذى وقف يخطب فيهم، ويعلنهم أن عليهم أن يرضوا بالصلح لأن فى ذلك صلاح مالهم واستطاع أن يقنعهم بأنه أراد الخير لهم حتى أن الجند أسرعوا يجمعون الجزية، وزادوا عليها مقداراً من الذهب كبيراً، ووضع ذلك كله فى سفينة خرجت من الباب الجنوبى، وذهب به قيرس إلى قائد المسلمين يحمله له بنفسه.

الفصل الرابع عشر :

روايات قدامى الكتاب والرحالة العرب عن مدينة الإسكندرية :

- البلاذرى فى فتوح البلدان

(القرن الثالث الهجرى)

- ابن بطوطة فى رحلته إلى الإسكندرية

(منتصف القرن الثامن الهجرى)

رواية البلاذرى فى فتوح البلدان(١)

فتح الإسكندرية

قالوا : «لما فتح عمرو بن العاص مصر أقام بها ، ثم كتب إلى عمر بن الخطاب يستأمره فى الزحف إلى الإسكندرية ، فكتب إليه يأمره بذلك ، فسار إليها فى سنة ٢١ ، واستخلف على مصر خارجَة بن حُذافة بن غانم بن عامر بن عبدالله بن عبيد بن عَويج بن عَدىّ بن كعب بن لؤى بن غالب ، وكان من دون الإسكندرية من الروم والقبط قد تجمعوا له وقالوا نغزوه بالفسطاط قبل أن يبلغنا ، ويروم الإسكندرية ، فلقيهم بالكريون فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وكان فيهم من أهل سَخَا وبلهيت والخيس وسلطيس وغيرهم قوم رفدوهم وأعانوهم ، ثم سار عمرو حتى انتهى إلى الإسكندرية ، فوجد أهلها معدين لقتاله ، إلا أن القبط فى ذلك يحبون الموادعة فأرسل إليه المقوقس يسأله الصلح والمهادنة إلى مدة ، فأبى عمرو ذلك ، فأمر المقوقس النساء أن يقمن على سور المدينة مقبلات بوجههن إلى داخله ، وأقام الرجال فى السلاح مقبلين بوجوههم إلى المسلمين ليرهبهم بذلك ، فأرسل إليه عمرو أنّا قد رأينا ما صنعت وما بالكثرة غَلَبْنَا من غَلَبْنَا ، فقد لقينا هرقل ملككم ، فكان من أمره ما كان ، فقال المقوقس لأصحابه قد صدق هؤلاء القوم ، أخرجوا ملكنا من دار مملكته حتى أدخلوه القسطنطينية ، فنحن أولى بالإذعان ، فأغلظوا له القول وأبوا إلا المحاربة ، فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً ، وحصروهم ثلاثة أشهر ، ثم إن عمراً فتحها بالسيف ، وغنم ما فيها ، واستبقى أهلها ولم يقتل ، ولم يسبر ، وجعلهم ذمة كأهل اليونة ، فكتب إلى عمر بالفتح مع معاوية بن حديج الكندى ، ثم السكونى ، وبعث إليه معه بالخمس . ويقال إن المقوقس صالح عمراً على ثلاثة عشر ألف دينار ، على أن يخرج من الإسكندرية من أراد الخروج ، ويقيم بها من أحب المقام ، وعلى أن يفرض على كل حالم من القبط دينارين ، فكتب لهم بذلك كتاباً ، ثم أن

(١) البلاذرى من أشهر مؤرخى العرب فى القرن الثالث الهجرى (٢٧١هـ) ، فكان قريباً من الأحداث التى يرويها .

عمرو بن العاص استخلف على الإسكندرية عبدالله بن حذافة بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى فى رابطة من المسلمين، وانصرف إلى الفسطاط وكتب الروم إلى قسطنطين بن هرقل، وهو كان الملك يومئذ يخبرونه بقلة من عندهم من المسلمين وبما هم فيه من الذلة، وأداء الجزية، فبعث رجلاً من أصحابه يقال له منويل فى ثلاثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة، فدخل الإسكندرية وقتل من بها من روابط المسلمين، إلا من لطف للهرب فنجا، وذلك فى سنة ٣٥، وبلغ عمراً الخبر فسار إليهم فى خمسة عشر ألفاً، فوجد مقاتلتهم قد خرجوا يعيثون فيما يلى الإسكندرية من قرى مصر، فلقيهم المسلمون فرشقوهم بالنشاب ساعة، والمسلمون مترسون، ثم صدقوهم الحملة فالتحمت بينهم الحرب فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم أن أولئك الكفرة ولوا منهزمين، فلم يكن لهم ناهياً ولا عرجة دون الإسكندرية فتحصنوا بها ونصبوا العرادات[١] فقاتلهم عمرو عليها أشد قتال، ونصب المجانيق فأخذت جدرها، والح بالحرب حتى دخلها بالسيف عنوة فقتل المقاتلة وسبى الذرية وهرب بعض رومها إلى الروم، وقتل عدو الله منويل، وهدم عمرو والمسلمون جدار الإسكندرية، وكان عمرو نذر لئن فتحها ليفعلن ذلك. وقال بعض الرواة إن هذه الغزاة كانت فى سنة ٢٣، وروى بعضهم أنهم نقضوا فى سنة ٢٣، وسنة ٢٥، والله أعلم.

قالوا: ووضع عمرو على أرض الإسكندرية الخراج، وعلى أهلها الجزية، وروى أن المقوقس اعتزل أهل الإسكندرية حين نقضوا فأقره عمرو ومن معه على أمرهم الأول، وروى أيضاً أنه قد كان مات قبل هذه الغزاة. حدثنى محمد بن سعد، عن الواقدى، عن إسحاق بن عبدالله بن أبى قروة، عن حيان بن شريح، عن عمر بن عبدالعزيز «رضى الله عنه» أنه قال لم تفتح قرية من المغرب على صلح إلا ثلاثاً: الإسكندرية، وكفرطيس، وسلطيس، فكان عمر يقول من أسلم من أهل هذه المواضع خلى سبيله وسبيل ماله.

حدثنى عمرو الناقد، قال حدثنا ابن وهب المصرى، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، أنه قال افتتح عمرو بن العاص الإسكندرية فسكنها المسلمون فى رباطهم، ثم غزوا وابتدروا إلى المنازل، فكان الرجل يأتى المنزل الذى كان ينزله فيجد صاحبه قد نزله وبدر إليه، فقال عمرو: إنى أخاف أن تخرب المنازل إذا كنتم تتعاودونها، فلما غزا فصاروا عند الكريون، قال لهم سيروا على بركة الله، فمن ركز منكم رمحاً فى دار فهى له ولبنى أبيه،

(١) العرادات: جمع عرادة، وهى آلة حربية لرمى الحجارة.

فكان الرجل يدخل الدار فيركز رمحه فى بعض بيوتها، ويأتي الآخر فيركز رمحه كذلك أيضاً، فكانت الدار بين النفسين والثلاثة، فكانوا يسكنونها فإذا قفلوا سكنها الروم، فكان يزيد بن أبى حبيب يقول لايحل لأحد شئ من كرائها، ولا تباع ولا تورث إنما كانت لهم سكنى أيام رباطهم، فلما كان قتالها الآخر وقدمها منويل الرومى الخصى، أغلقها أهلها ففتحها عمرو وأخرب سورها. قالوا: ولما ولى عمرو وردان مولاه الإسكندرية ورجع إلى الفسطاط فلم يلبث إلا قليلاً حتى أتاه عزله، فولى عثمان بعده، عبدالله بن لؤى، وكان أخا عثمان من الرضاعة، وكانت ولايته فى سنة ٢٥. ويقال: إن عبدالله بن سعد، كان على خراج مصر من قبل عثمان، فجرى بينه وبين عمرو كلام، فكتب عبدالله يشكو عمراً فعزله عثمان وجمع العملين لعبدالله بن سعد، وكتب إليه يعلمه أن الإسكندرية فتحت مرة عنوة وانتقضت مرتين، ويأمره أن يلزمها رابطة لا تفارقها، وأن يدر عليهم الأرزاق، ويعقب بينهم في كل ستة أشهر.

وحدثنى محمد بن سعد عن الواقدى أن ابن هرمز الأعرج القارئ كان يقول خير سواحلكم رباطاً الإسكندرية، فخرج إليها من المدينة مرابطاً بها سنة ١١٧.

وحدثنى بكر بن الهيثم، عن عبدالله بن صالح، عن موسى بن على، عن أبيه قال: كانت جزية الإسكندرية ثمانية عشر ألف دينار فلما كانت ولاية هشام بن عبدالملك بلغت ستة وثلاثين ألف دينار.

حدثنى عمرو، عن ابن وهب، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب قال: كان عثمان عزل عمرو بن العاص عن مصر، وجعل عليها عبدالله بن سعد، فلما نزلت الروم الإسكندرية، سأل أهل مصر عثمان أن يقر عمراً حتى يفرغ من قتال الروم؛ لأن له معرفة بالحرب وهيبة فى أنفس العدو ففعل حتى هزمهم، فأراد عثمان أن يجعل عمراً على الحرب، وعبدالله على الخراج فأبى ذلك عمرو وقال أنا كماسك قرني البقرة، والأمير يحلبها فولى عثمان بن سعد مصر، ثم أقامت الحبش من البيما بعد فتح مصر يقاتلون سبع سنين مايقدر عليهم لما يفجرون من المياه الغياض. قال بن عبدالله بن وهب، وأخبرنى الليث بن سعد، عن موسى بن على، عن أبيه أن عمراً فتح الإسكندرية الفتح الآخر عنوة فى خلافة عثمان، بعد وفاة عمر «رحمه الله».

يقول ابن بطوطة فى رحلته إلى الإسكندرية منتصف القرن الثامن الهجرى :

الوصول إلى الإسكندرية (١)

ثم وصلنا فى أول جمادى الأولى إلى مدينة الإسكندرية، حرسها الله، وهى الثغر المحروس والقطر المأنوس، العجيبة الشأن الأصيلة البنيان، بها ما شئت من تحسين وتحصين، ومآثر دنيا ودين، كرمت مغانيها ولطفت معانيها، وجمعت بين الضخامة والأحكام مبانيها، فهى الفريدة فى تجلى سناها، والخريدة تجلى فى حلاها، والزاهية بجمالها المغرب، الجامعة لمفترق المحاسن، لتوسطها بين المشرق والمغرب، فكل بديعة بها أجتلاؤها، وكل طرفة فاليها انتهاؤها. وقد وصف الناس فأطنبوا. وصنفوا فى عجائبها فأغربوا، وحسب المشرف إلى ذلك ما سطره أبوعبيد فى كتاب المسالك.

وصف الإسكندرية :

ولمدينة الإسكندرية أربعة أبواب : باب السدرة، وإليه يشرع طريق المغرب، وباب رشيد، وباب البحر، والباب الأخضر، وليس يُفتح إلا يوم الجمعة، فيخرج الناس منه إلى زيارة القبور. ولها المرسى العظيم الشأن، ولم أرَ فى مراسى الدنيا مثله، إلا ما كان من مرسى كولم وقاليقوط ببلاد الهند، ومرسى الكفار بسرداق ببلاد الأتراك، ومرسى الزيتون ببلاد الصين وسيقع ذكرها.

منار الإسكندرية القديم :

قصدت المنار فى هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدماً. وصفته أنه بناء مربع ذاهب فى الهواء، وبابه مرتفع على الأرض، وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه، وضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها إلى بابه، فإذا أزيلت لم يكن له سبيل. وداخل موضع لجلوس حارس المنار، وداخل المنار بيوت كثيرة، وعرض الممر بداخله تسعة أشبار، وعرض الحائط عشرة أشبار، وعرض

(١) ابن بطوطة، مولود عام ٧٠٢هـ - ١٣٠٤م.

المنار من كل جهة من جهاته الأربع مائة وأربعون شبراً، وهو على تل مرتفع. ومسافة مابينه وبين المدينة فرسخ واحد فى بر مستطيل، يحيط به البحر من ثلاث جهات إلى أن يتصل البحر بصور البلد، فلا يمكن التوصل إلى المنار فى البر إلا من المدينة. وفى هذا البر المتصل بالمنار مقبرة الإسكندرية.

وقصدت المنار عند عودى إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة، فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لايمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه. وكان الملك الناصر، رحمه الله، قد شرع فى بناء منار مثله بإزائه، فعاقه الموت عن إتمامه.

وصف عمود السوارى:

ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذى بخارجها المسمى عندهم بعمود السوارى، وهو متوسط «فى غابة نخل، وقد امتاز عن شجراتها سمواً وارتفاعاً، وهو قطعة واحدة محكمة النحت، قد أقيم على قواعد حجارة مربعة أمثال الدكاكين العظيمة، ولاتعرف كيفية وضعه هنالك، ولايتحقق من وضعه.

استطراد من ابن جزى:

قال ابن جزى : أخبرنى بعض أشياخى الرحالين أن أحد الرمالة بالإسكندرية صعد إلى أعلى ذلك العمود، ومعه قوسه وكنانته، واستقر هنالك وشاع خبره، فاجتمع الجم الغفير لمشاهدته وطال العجب منه. وخفى على الناس وجه احتياله، وأظنه كان خائفاً أو طالب حاجة فأنتج له فعله الوصول إلى قصده، لغرابة ما أتى به.

وكيفية احتياله فى صعوده أنه رمى بنشابة قد عقد فوقها خيطاً طويلاً، وعقد بطرف الخيط حبلاً وثيقاً، فتجاوزت النشابة أعلى العمود معترضة عليه، ووقعت من الجهة الموازية للرامى، فصار الخيط معترضاً على أعلى العمود فجذبه حتى توسط الحبل أعلى العمود مكان الخيط، فأوسطه من إحدى الجهتين فى الأرض، وتعلق به صاعداً من الجهة الأخرى، واستقر بأعلاه وجذب الحبل، واستصحب من احتمله، فعلم يهتد الناس لحيلته وعجبوا من شأنه.

استئناف رواية ابن بطوطة :

وكان أمير الإسكندرية فى عهد وصولى إليها يسمى بصلاح الدين، وكان فيها أيضاً فى ذلك العهد سلطان افريقية المخلوع، وهو زكرياء أبو يحيى بن أحمد بن أبى حفص المعروف باللحيانى، وأمر الملك الناصر بإنزاله بدار السلطنة من الإسكندرية، وأجرى له مائة درهم فى كل يوم. وكان معه أولاده عبدالواحد ومصرى وإسكندرى وحاجبه أبو زكرياء بن يعقوب ووزيره أبوعبدالله بن ياسين. وبالإسكندرية توفى اللحيانى المذكور وولده الإسكندرى وبقى المصرى بها.

استطراد من ابن جزى :

قال ابن جزى : من الغريب ما اتفق من صدق الزجر فى أسمى ولدى الليحانى الإسكندرى والمصرى، فمات الإسكندرى بها، وعاش المصرى دهراً بها. وهى من بلاد مصر.

استئناف رواية ابن بطوطة :

وتحول عبدالواحد لبلاد الأندلس والمغرب وأفريقية وتوفى هنالك بجزيرة جربة.

الفصل الخامس عشر :

حول حريق المكتبة على يد عمرو بن العاص !!

■ روى أبوالحسن على بن يوسف القفطى (٥٦٨ ـ ٦٤٦هـ) فى كتابه «تاريخ الحكماء» رواية حريق المكتبة على يد عمرو بن العاص، وقد كان ابن العبرى (جورج أبوالفرج) ١٢٣٦ ـ ١٢٨٦م أول من نقلها عن ابن القفطى، وتداولها بعد ذلك بقية المؤرخين أمثال عبداللطيف البغدادى والمقريزى. ولنعرض الآن لتلك الرواية، ومايحيط بها كما جاءت على لسان ابن القفطى وابن العبرى.

روى يحيى النحوى المعروف بغرماطيقوس، وكان إسكندرانياً يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبيين ثم رجع عما يعتقده النصارى فى التثليث، واجتمع إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما هو عليه، فلم يرجع فأسقطوه عن منزلته، وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية، ودخل على عمرو فأكرمه وفتن به فلازمه وكان لايفارقه، ثم قال له يحيى يوماً إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية، وختمت على كل الأصناف الموجودة بها، فأما مالك به انتفاع فلا أعترضك فيه وما لا نفع لكم به فنحن أولى به فقال له عمرو ما الذى تحتاج إليه قال كتب الحكمة فى الخزائن الملوكية، فقال له عمرو لايمكننى أن آمر فيها بأمر إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه وأما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها مايوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها مايخالف كتاب الله فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها فشرع عمرو بن العاص فى تفرقتها على حمامات الإسكندرية وإحراقها فى مواقدها، وقد استنفدت فى مدة ستة أشهر.

هذه هى الرواية التى ذاعت فى القرن الثالث عشر الميلادى، وقد ذكرها «عبداللطيف البغدادى» ورواها حقيقة لاشك فيها، وقد ذكرها المقريزى فى خططه حينما تكلم عن عمود

السوارى، فقال إنه كان به خزانة كتب أحرقها عمرو بن العاص بإشارة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ولننقد هذه الرواية شكلاً وموضوعاً.

أما من حيث الشكل فيلاحظ ما يأتى :

أولاً : أما عن يحيى النحوى الذى تدور الرواية حوله، فلم يكن على قيد الحياة عام ٦٤٢م، فقد كان مشتغلاً بكتاباته الدينية يهاجم فيها رجال الدين منذ تولية جستنيان الحكم (٥٢٧ - ٥٦٥م)، وتدلنا المصادر التاريخية أنه كان من معاصرى سفيريوس الأنطاكى، ولم يكن معاصراً لجورج البيسدى. ويقفنا الذى مات فى أوائل القرن السابع الميلادى، على أن يحيى المذكور لم يكن على قيد الحياة حينما كان هو يؤلف كتبه الدينية. فلو صح أنه كان حياً عام ٦٤٢م، لكان عمره إذ ذاك مايقرب من ١٢٠ سنة، فيحيى إذاً مات قبل أن يأتى عمرو الإسكندرية.

ثانياً : إن روايات شبيهة بتلك الرواية ذكرت عن مكتبات الفرس، وأن رداً كهذا الرد صدر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أيضاً فليس ببعيد أن يكون ذلك من صنع الرواة فهناك نوع من الاتساق المصطنع فى صيغة الرواية، وخصوصاً حينما يذكر يحيى النحوى «كتب الحكمة فى الخزائن الملوكية» ونحن نعلم ماسبق أن مكتبة الإسكندرية فى العهد الرومانى الأخير كانت بالسرابيوم، ولم يكن لها أية صلة «بالخزائن الملوكية».

ثالثاً : على أن النحو الذى نقلته إلينا الرواية فيه شئ من الشذوذ، إذ لايمكننا أن نتصور أنه بدلاً من حرقها دفعة واحدة كما هو المعقول، إذا كان فى نية العرب التخلص حقاً من تراث الوثنية، تفرق هذه الكتب على الحمامات مدة ستة أشهر. فتتاح فرصة لمن يريد إنقاذ مايمكن إنقاذه من كتب الحكمة، فلم يكن بمستعصٍ على يحيى النحوى وأمثاله أن يلتقط من الحمامات مايمكن التقاطه. ولاشك أن العرب لم تكن لترضى عن ذلك، إذا كان جل غرضهم القضاء على التراث الوثنى.

رابعاً: غريب جداً أن يسود المؤرخين العرب والإغريق صمت عميق عن هذه المكتبة مدة ستة قرون بعد الفتح العربى، فلا يذكر مؤرخ ما رواية هذا الحريق طول هذه المدة، إلى أن يأتى ابن القفطى وابن العبرى فى القرن الثالث عشر، ويطلعا على الملأ بهذه الرواية.

خامساً : إن حنا مسكوس وزميله سفرنيوس زارا مصر قبل الفتح العربى، وتحدثا عن المكتبات الخاصة فى الإسكندرية، ولم يذكرا شيئاً ما عن مكتبة الإسكندرية . فلو صح أن لها وجوداً حينذاك لما أحجما عن ذكر شئ من أثرها .

سادساً : إن حنا النقيوسى الذى كان يكتب فى أواخر القرن السابع الميلادى يعطينا تفاصيل دقيقة عن الفتح العربى لمصر ولايذكر شيئاً ما عن حريق المكتبة الذى تدعيه الرواية. فلو كانت هناك مكتبة أحرقها العرب، لقص علينا خبرها، ولأبان عن حسرته على فقدان مصادر تاريخية، كان يمكن أن يرجع هو إليها فى كتابة تاريخه.

هل لنا أن نجارى فى أصل هذه الرواية ونقول بأن الذى نشرها هم الشيعة، نشروها حينما أغلق صلاح الدين بيت الحكمة وأسس بدلها المدارس. فنشر علماء الفواطم أن أهل السنة هم أعداء للعلم والكتب، فعمر من قبل قد أحرق مكتبة الإسكندرية. وقد انتشرت هذه الرواية ونقلها ابن القفطى وابن العبرى وعبداللطيف البغدادى وغيرهم من المؤرخين.

هذا هو نقد للرواية شكلاً أما موضوعاً، فما أسلفنا عن تاريخ المكتبة يثبت أنها قد زالت من الوجود قبل الفتح العربى وإليك ملخص لذلك :

أولاً : قضى على مكتبة الأكاديمية التى كانت فى حى البروكيوم، أثناء حريق يوليوس قيصر للأسطول عام ٤٨ ق.م.

ثانياً : إن مجموعة الكتب التى كانت تربى على ٢٠٠,٠٠٠ مجلد، والتى أهداها مارك أنطوان لكيلوباترا تعويضاً عن حريق المكتبة قد أودعت معبد القيصرون، وأن هذا المعبد هدم ومكتبته أثناء الثورات الدينية عام ٣٣٦م.

ثالثاً : منذ القرن الرابع الميلادى ومعبد السرابيوم ومكتبته هما معقل النشاط الفكرى بالإسكندرية. وفى الصراع العنيد الذى دار بين الوثنية والمسيحية هدم المعبد والمكتبة حوالى عام ٣٩١م، وقد دل على ذلك ماذكره روفينوس وأفتنيوس وأورسيوس ولم يرد خبر ما عن مكتبة الإسكندرية طيلة القرنين الخامس والسادس الميلادى؛ مما يدل على عدم وجودها قبل الفتح العربى. وعلى فرض وجود المكتبة عند الفتح العربى فنحن نعلم أن العرب لم يدخلوا الإسكندرية بعد فتحها إلا بعد ١١ شهراً، وكان من شروط المعاهدة أن للرومان أن يأخذوا من

المدينة ما شاءوا من آثار وتحف. فهل أغفل العلماء قيمة الكتب، وقد كان عندهم متسع من الوقت لينقلوها بحراً إلى القسطنطينية أو إلى الموانئ الأخرى، بدلاً من تركها للعرب يفرقونها على الحمامات، كما تقول الرواية؟

وإذا جاز لعمر بن الخطاب أن يأمر بإلقاء كتب الفرس فى المياه - كما روى لنا ذلك ابن خلدون - وحقيقة كان له أن يبيد تراث عبدة النار، فهل يصح أن تتخذ ذلك حجة لخلق روايات عن تدمير الكتب على أيدى العرب.

ولنا فى «جبون» المؤرخ الإنكليزى، الذى كان على رأس المنكرين لحرق العرب لمكتبة الإسكندرية وما استند إليه من صمت المؤرخين المعاصرين مسيحيين وعرب وإغريق، حجة تدفع عن العرب ماهم منه براء، وأن أيديهم لم تدنس بهذا العمل الذى ننكره على أمة، بدأت رسالة الإسلام فيها بقوله تعالى :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذى علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم» (١).

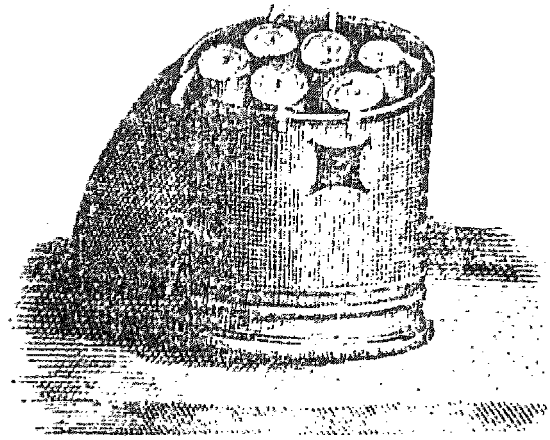
أمة لها فى تعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة فى تكريم العلم وآله، أمة بهجها . «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» (٢).

(١) قرآن كريم، سورة القلم.

(٢) حديث نبوى شريف.

ملاحق الكتاب

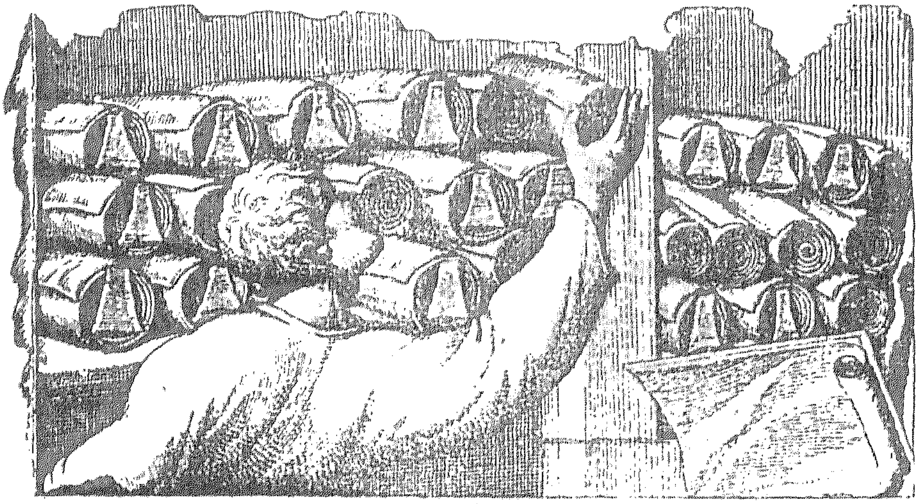
- صور وخرائط
- مصادر البحث
- فهرس الموضوعات
- كتب للمؤلف



صندوق لحفظ اللفائف.



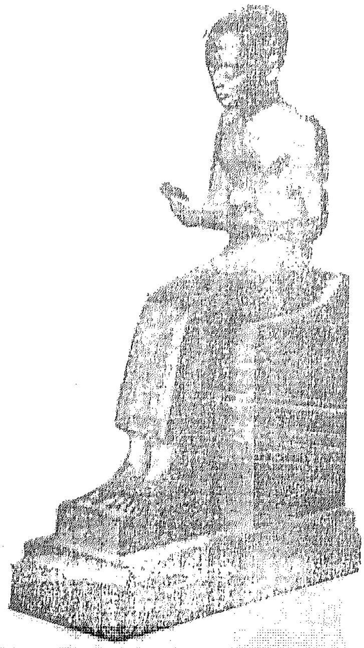
قارئ في إحدى اللفائف.



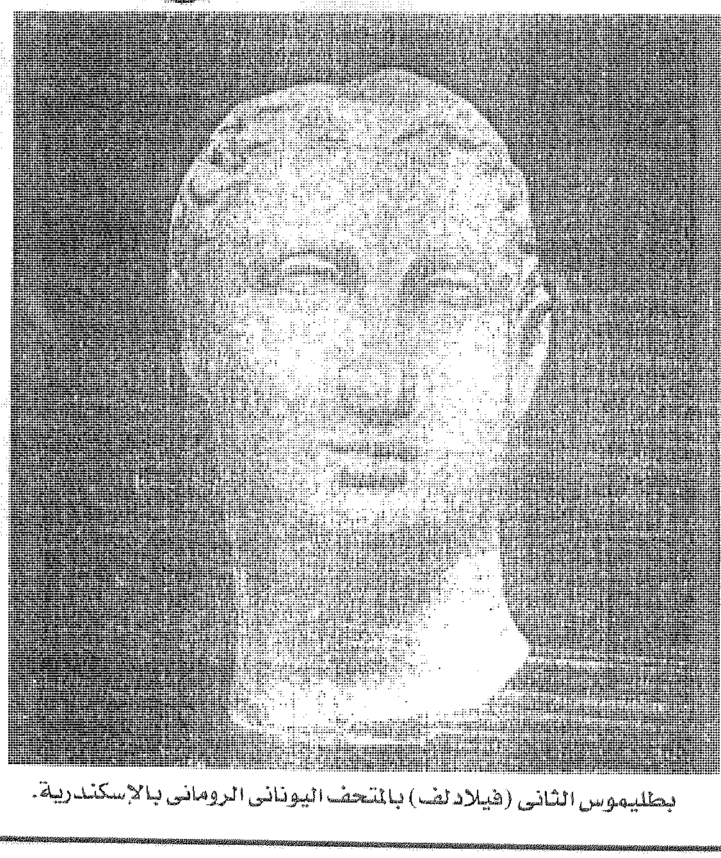
موظف بالمكتبة ينظم لفائف البردى.



بطليموس الأول (سوطر) بمتحف كارلسبرج (كوبنهاجن).

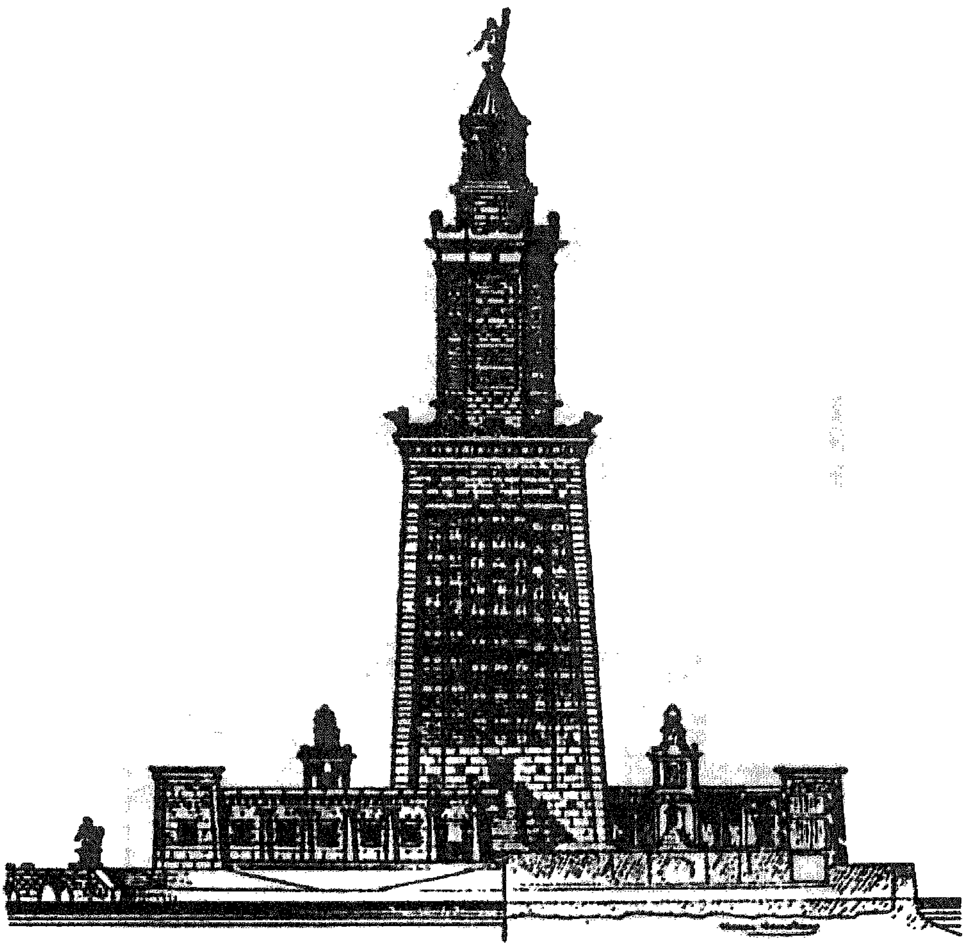


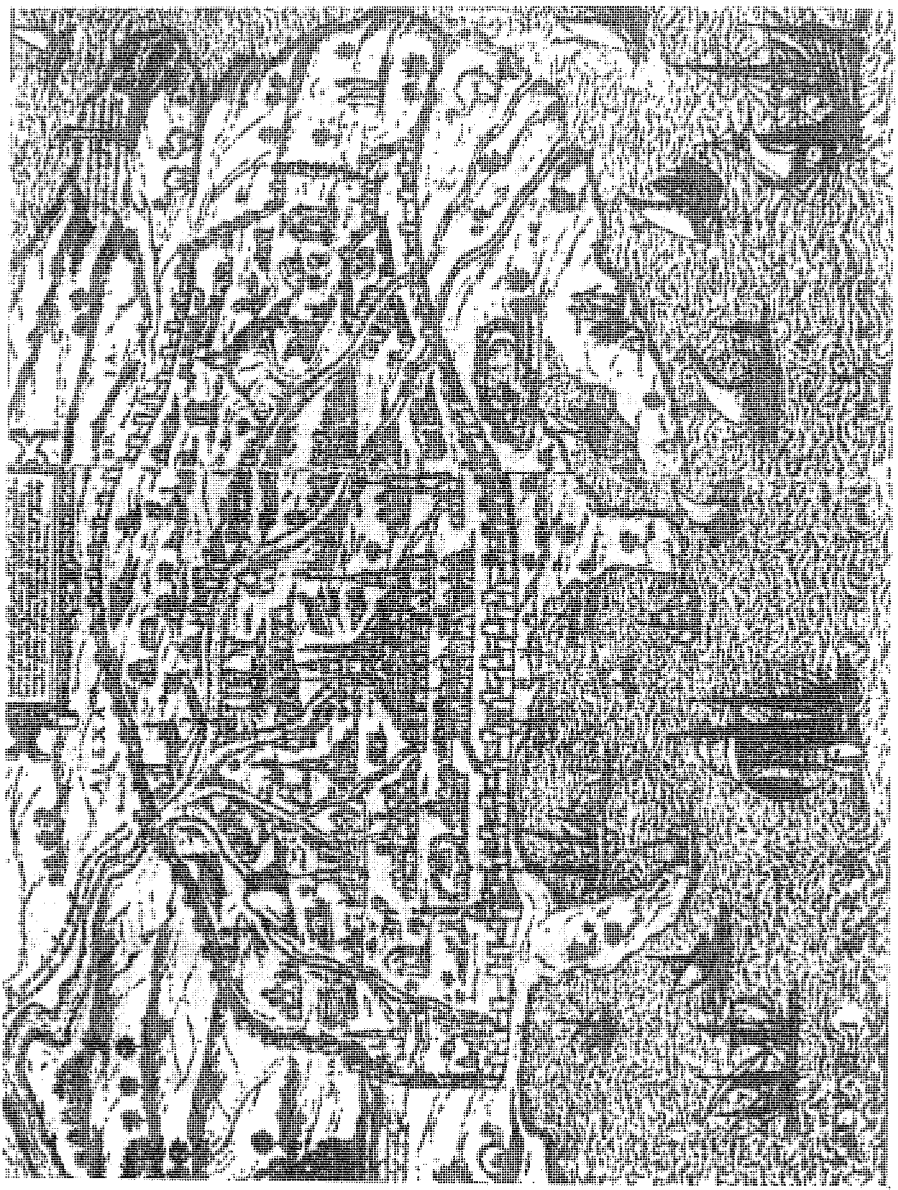
تمثال لقارئ.



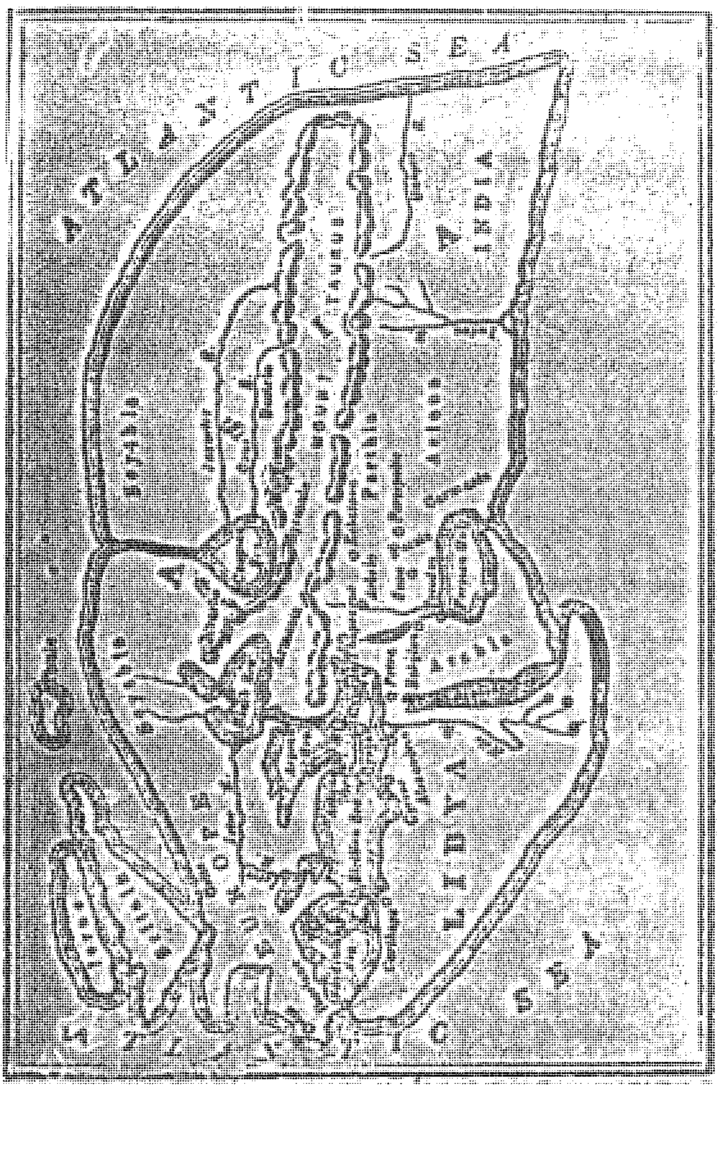
بطليموس الثانى (فيلادلف) بالمتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية.

فنار الإسكندرية

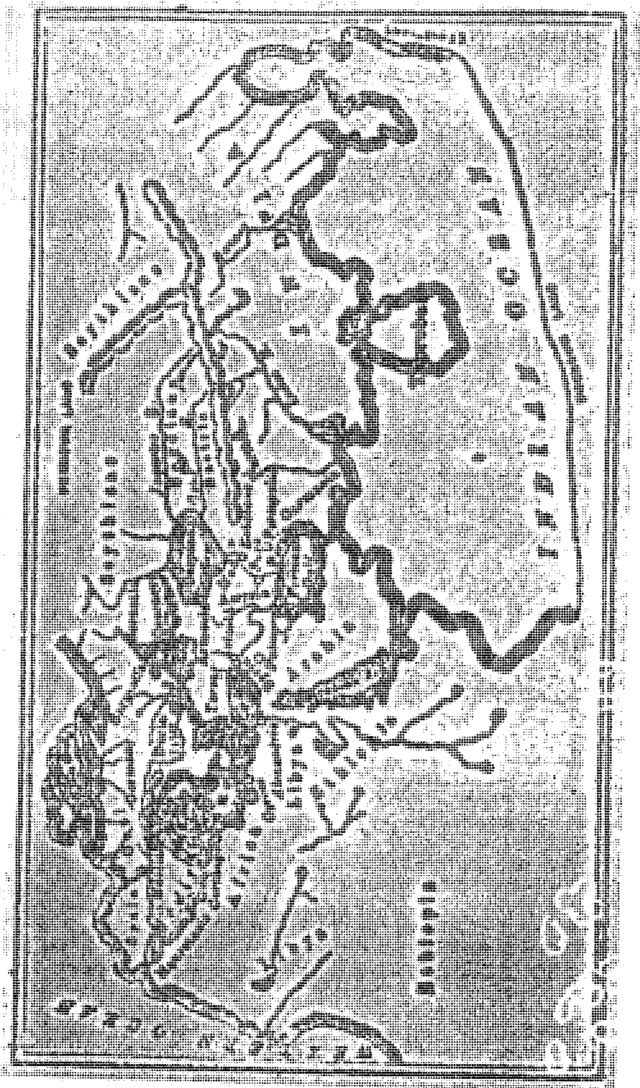




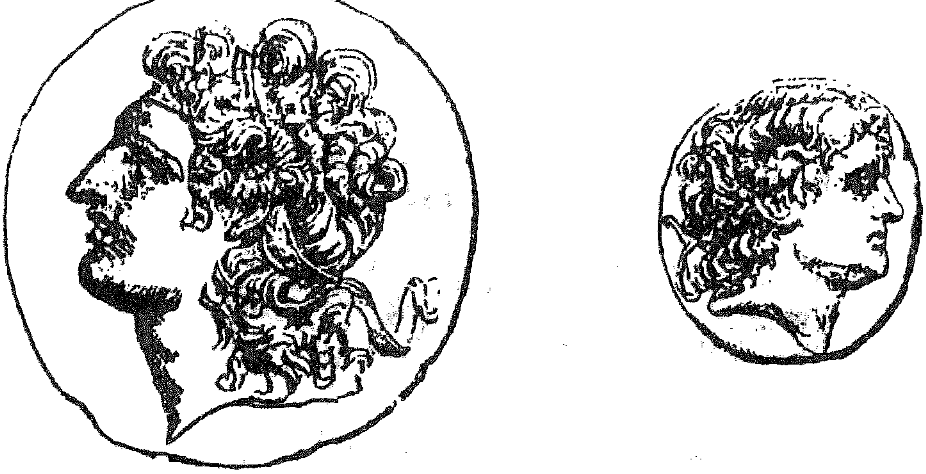
خريطة الإسكندرية بأسوارها القديمة، تظهر بها أفرع القنوات الممتدة من الفرع الكانوبي.



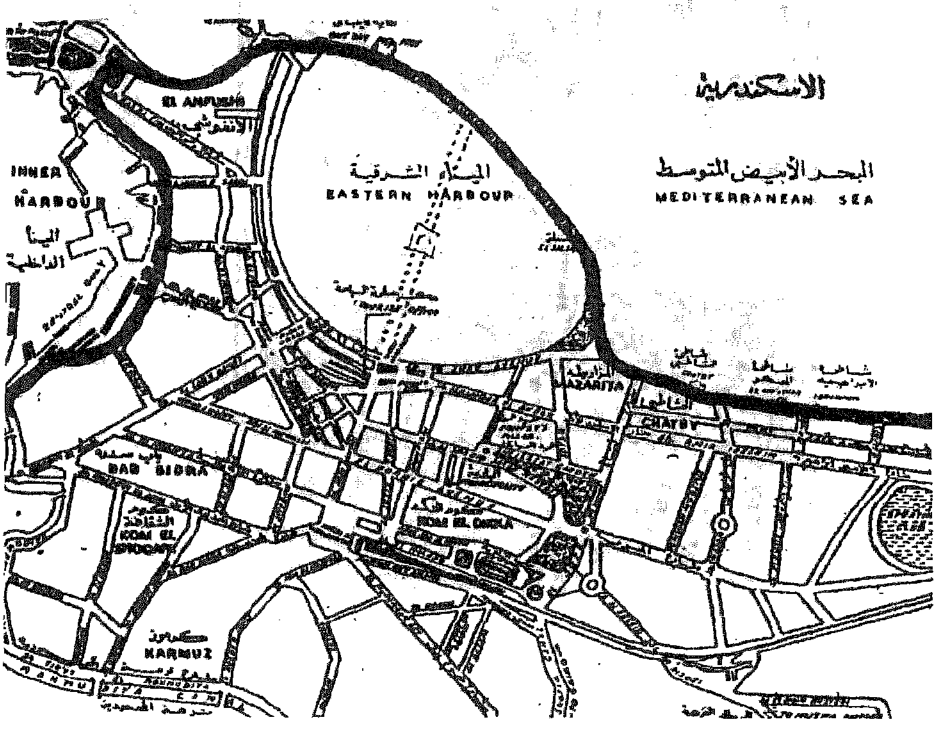
خريطة العالم التى وضعت فى عهد الإسكندر، وتنتهى حدود القارات فيها عند حدود البلاد، التى قام بغزوها، والبحار التى وصل إليها. وتظهر الإسكندرية فى مركز العالم، وهى أول خريطة فى العالم..



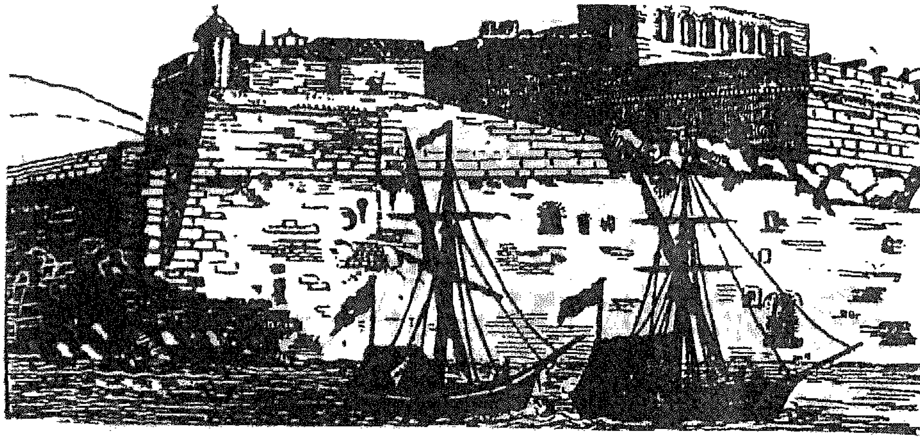
خريطة العالم التى وضعها بطليموس الثانى.



العملة التى ضربت فى الإسكندرية، وتحمل صورة الإسكندرية واسمه بمناسبة تحويل الإسكندرية إلى عاصمة للبلاد.



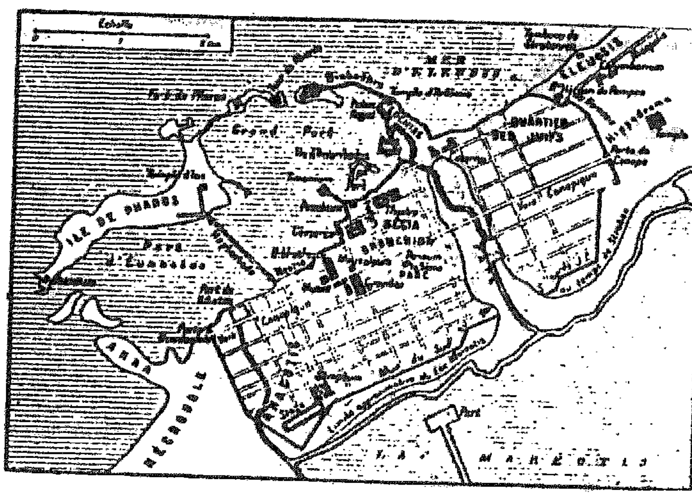
مشروع تحويل كورنيش الشاطئ وتجفيف حوض الميناء الشرقى.



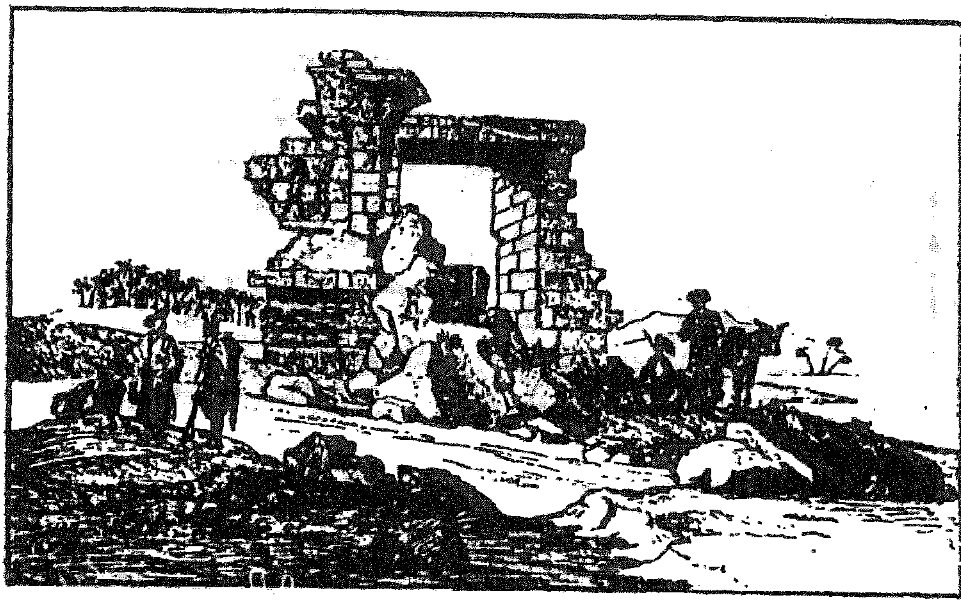
أولى قلاع الإسكندرية القديمة على شاطئ الميناء الشرقى.



واحة سيوة وجبل الوحى.



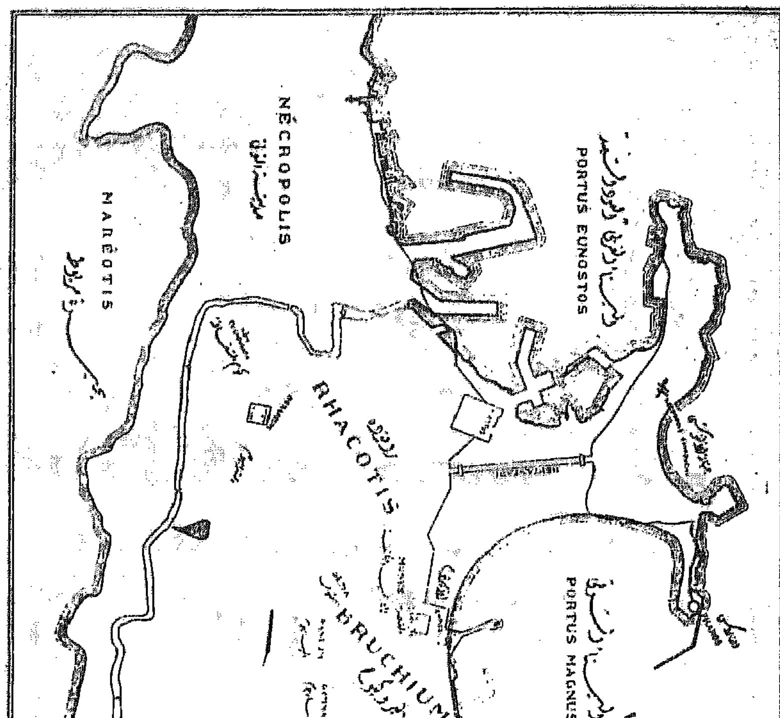
تخطيط مدينة الإسكندرية بعد أن تم أنشاؤها «القرن الأول قبل الميلاد».

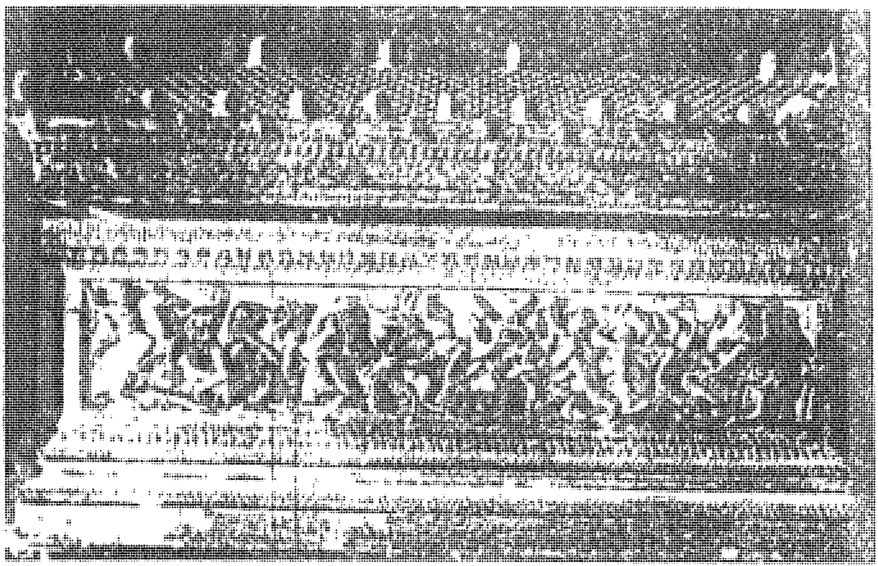


بوابة معبد زيوس آمون - سيوة.



بطليموس الثانى .. نقل العاصمة إلى الإسكندرية،
ونقل مقبرة الإسكندر إلى المدينة التى حملت اسمه.

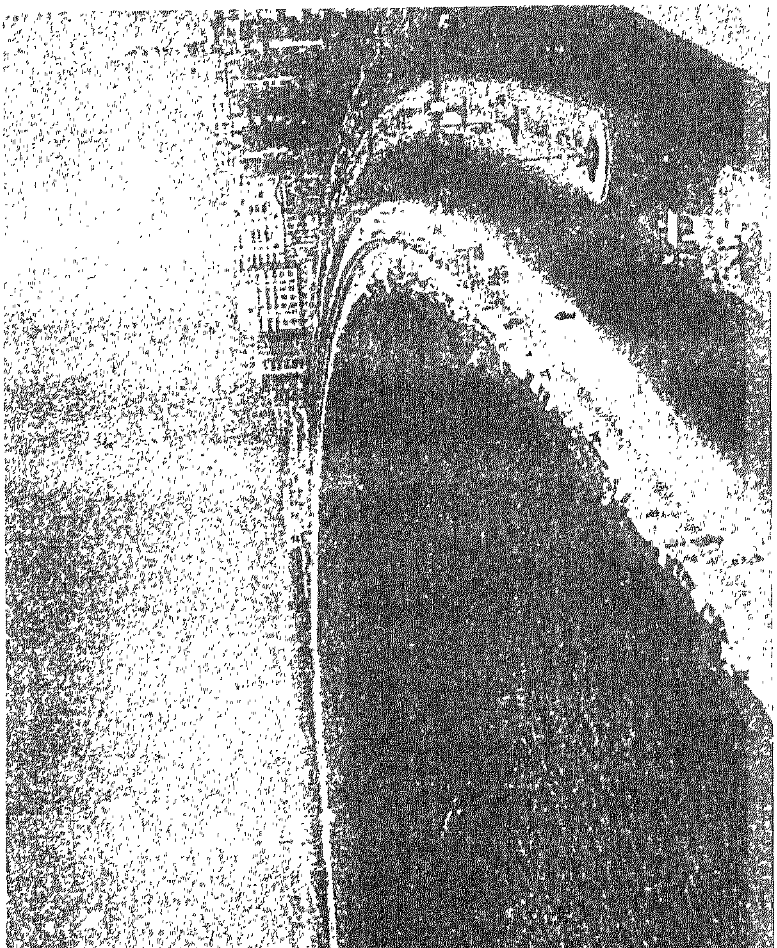

PORTUS EUNOSTOS
NÉCROPOLIS
MARÉOTIS
RHACOTIS
BRUCHIUM
PORTUS MAGNUS



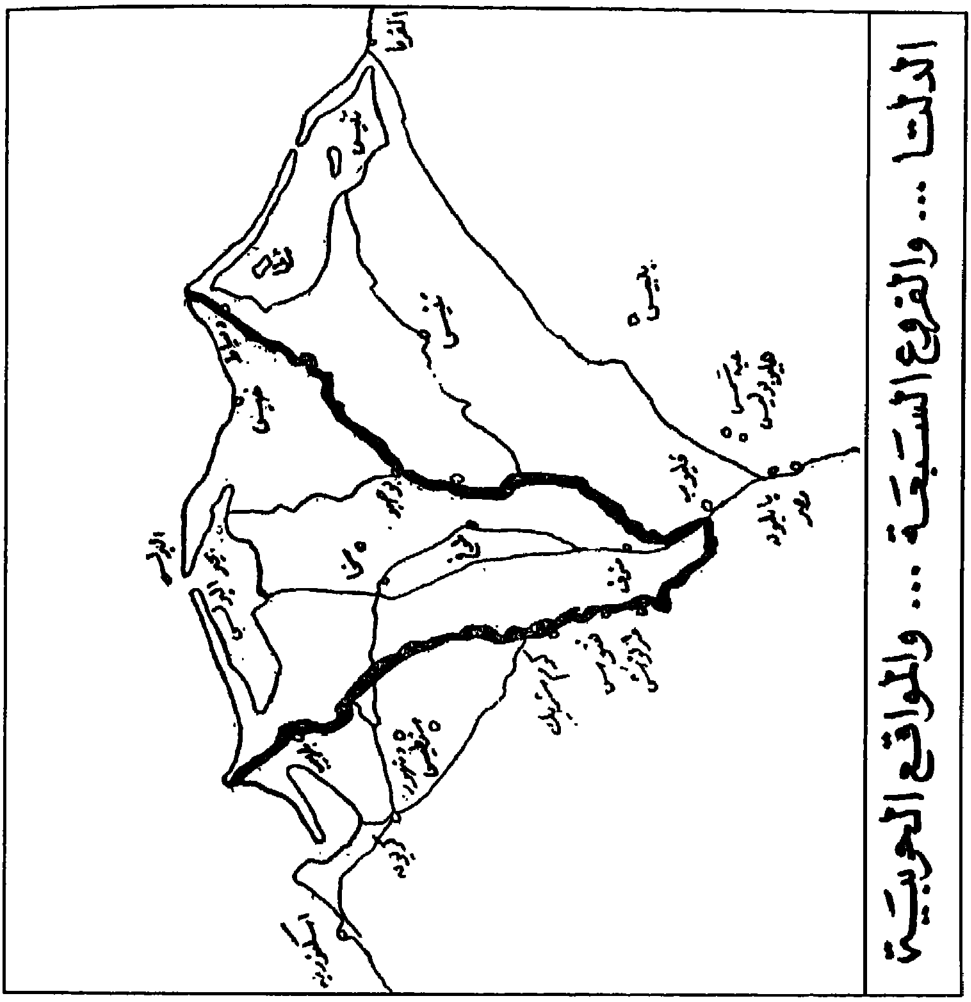
تابوت الإسكندر الذى وجد فى صيدا محفوظاً فى متحف الأستانة.



الإسكندر الأكبر يقدم القرابين للإله من - معبد الكرنك.



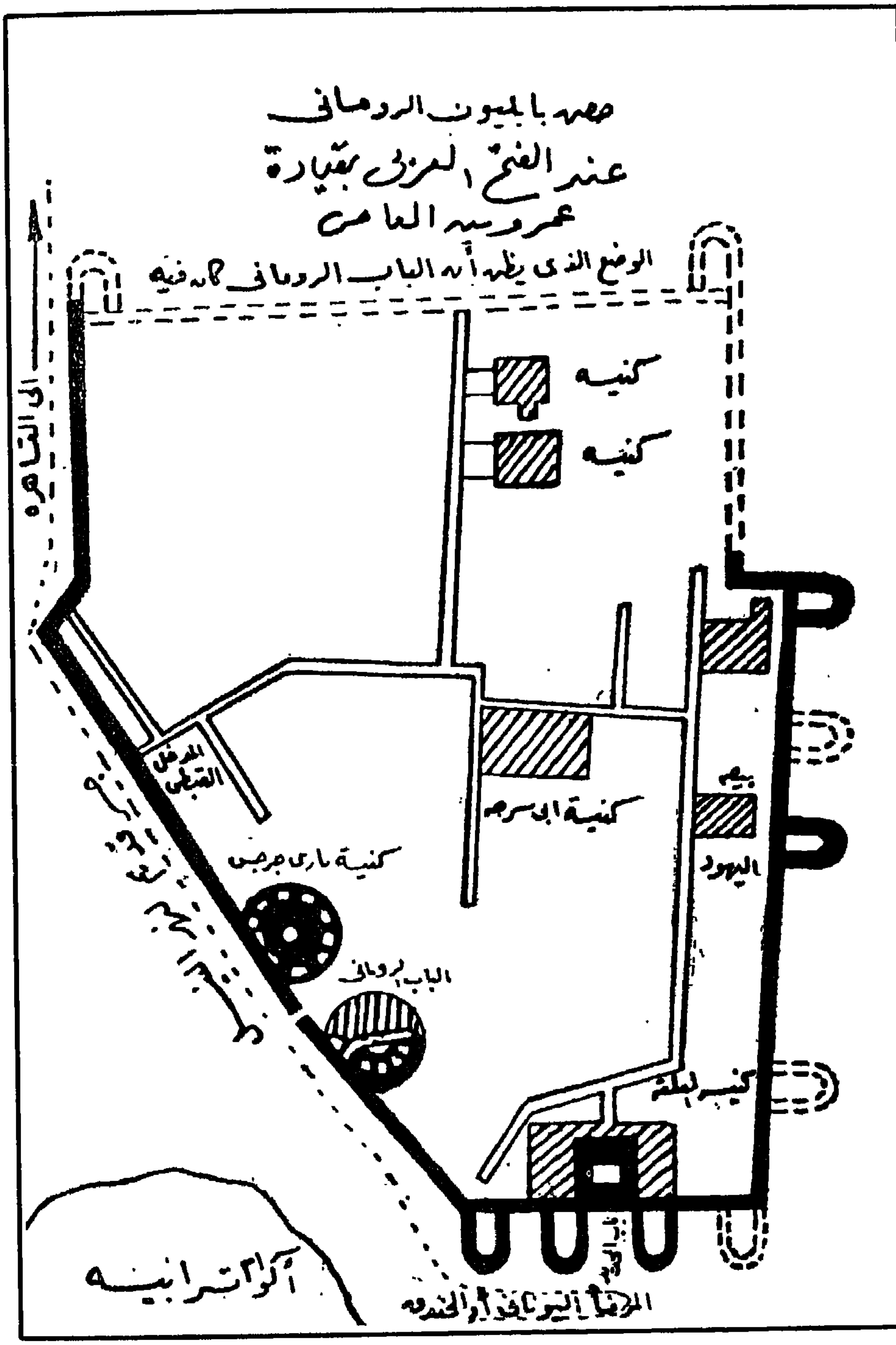
حوض الميناء الشرقي.. هل يكشف سر الإسكندر ومعبد ايزيس والحي الإمبراطوري.



فتح مصر بقيادة عمرو بن العاص.



فتح مصر بقيادة عمرو بن العاص.


مصر بابليون الروماني
عند الفتح العربي بقيادة
عمرو بن العاص
الوضع الذي يظن أن الباب الروماني كان فيه
كنيسه
كنيسه
كنيسة ابي سرجه
كنيسة مار جرجس
الباب الروماني
المدخل القبطي
بيعة اليهود
كنيسة المعلقة
أكوام ترابية
الى القاهره

كتب للمؤلف

١ ـ القضية الفلسطينية : بحث شامل على ضوء الحقائق التاريخية والسياسية .

٢ ـ الملك عبدالله وأطماعه فى سوريا وفلسطين .

٣ ـ دراسات عن العالم العربى ـ المملكة العربية السعودية .

٤ ـ المخدرات وخطرها .

٥ ـ إسرائيل : الأساطير ـ تزييف التاريخ ـ المؤامرة الاستعمارية .

٦ ـ الإسكندرية : المكتبة والأكاديمية فى العالم القديم

تحت الطبع :

١ ـ عروبة القدس .

٢ ـ الاستيطان الاستعمارى اليهودى والنزوح العربى من فلسطين .

أهم المصادر :

١ ـ مكتبة الإسكندرية فى العالم القديم، محمد أحمد حسين.

٢ ـ الإسكندرية ومقبرة الإسكندر : د. سيد كريم.
«بحث فى مجلة الهلال»

٣ ـ عمرو بن العاص ـ حسن إبراهيم حسن.

٤ ـ عمرو بن العاص ـ محمد فرج.

٥ ـ فتح العرب لمصر. ج. باتلر ـ ترجمة محمد فريد أبوحديد.

٦ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ـ المقريزى.

٧ ـ الخطط المقريزية.

٨ ـ الإفادة والاعتبار ـ عبداللطيف البغدادى.

٩ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ ابن خلدون.

١٠ ـ الكامل فى التاريخ ـ ابن الأثير.

١١ ـ تاريخ الأمم والملوك ـ الطبرى.

١٢ ـ فتوح البلدان ـ للبلاذرى.

١٣ ـ النجوم الزاهرة فى تاريخ مصر والقاهرة ـ أبو المحاسن.

١٤ ـ الفتوحات الإسلامية ـ للكندى.

١٥ ـ معجم البلدان ـ ياقوت الحموى.

١٦ ـ رحلات ابن بطوطة .

17 - Matter : Essai Historique sur l'Ecole d'Alexandrie - Paris.

18 - Jule Simon : Historique de l'Ecole d' Alexandrie - Paris.

19 - Butler : Arab Conquest of Egypt Oxford.

فصول الكتاب

رقم الإيداع : ٢٠٠٠/٥٦١٥

مطابع الدار الهندسية ت : ٥٤٠٢٥٩٨